ألواح القرميد

مجموعة قصصية

بأقلام واعدة برعاية أكون للإبداع العربي

دار بيوند للنشر والتوزيع
٤ ش كمال حسين متفرع من ومبي الهرم
٠١٠٩٦٩٠٠٠٠٧
Beyond.dbh@gmail.com
جميع الأراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها .ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

الكتاب: ألواح القرميد

المؤلف: مجموعة من الأقلام الإبداعية العربية

الطبعة: الأولى

تصنيف الكتاب: مجموعة قصصية

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

التدقيق اللغوي: سكون لخدمات الكتب

الإخراج الداخلي: صبرينة غلمي
رقم الإيداع: ٢٠١٨ / ٢٣١٩٦

الترقيم الدولي: ٥-٦١-٦٦٤٥-٩٧٧-٩٧٨

دار (بيوند) للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة
محمد عز الدين

المدير العام
صبرينة غلمي

المدير التنفيذي
جلال عز الدين

الفهرس

- الفهرس.....٠٣
- إهداء.....٠٤
- الزانية (زينب الأليسية).....٠٧
- أدم (أماني محمد القرني).....١٩
- سهاد (أسماء عبد الوهاب).....٢٨
- قضية مغلقة (أمنية مصطفي).....٣٥
- أقول نجم (شيماء عبد الرازق).....٤٢
- نقوش خفية (ليلى خالد).....٤٧
- الهدية (إسلام عبد القادر).....٧٦
- خلال دقيقة واحدة (نورا عبد الله).....٨٤
- رسائل لن تقرأ (فوزية بو بكري).....٩٢
- مغازل الشتاء (مال الشام).....١١٧
- فوضى (طيبي وفاء دليلة).....١٣٢
- ذاكرة متهم (لمياء الغراوي).....١٦١
- حبيس داخل أنفاسي (يزن جمال الدين).....١٧٥
- أيل للسقوط (هالة الجمسي).....١٨١
- أقناليل برمق القهوة (زهرة عاطف).....٢٠٧

الإهداء...

دائما ما نخط مشاعرنا على ورق أبيض، لأن المساحات البيضاء تستفز ذلك الشعور المكتوم صوته بدواخلنا، حتى يقرر نزف حبره الذي لا يعرف سوى الألم، ليعيد تشكيل كينونتنا، يعيد تسجيل واقع وأحلام نصبوا لها، يكون بداخلنا عالم آخر ولكنه صورة منبثقة من معاناة القلم، كانت تلك الأقلام مصدر إلهام لنقدم فكرة جديدة لعالم تتوحد فيه الأفكار والأهداف والطموحات، أكون، تلك الكلمة كانت لهم مصدر قوة لتقديم أول عمل جماعي يكتبه ويراجعه ويدقق مجموعة من أدباء العرب، لا فرق بينهم بالسن أو الاسم أو الهوية، فقط يحملون لقب كاتب موهوب وشغوف، نترككم مع أول مجموعة أدبية بيد موهوبين العرب من سن الخامسة عشر إلى السبعون عامَ.

الكاتبة شاه زنان العتابي

الكاتبة أميرة إسماعيل

الزّانيةّ

بقلم.. زينب الاليسية / السعودية

كأنما أفقت من القبر..

أحسرت عني لحاء الوحدة والذاكرة، وهُممت إلى المغسل كقبر يتخلل أحشاء جثة.

صباح العيد، حاولتُ أن أنام، أهدابي تصفق بلا هوادة، لأشد ما أكرهه العيد!

غلفت المأساة أوداجي الشاحبة، ولم تفلح أنهار الروح بزوالها..

وفلقت الأسئلة الصماء حينها حدبة رأسي بقهر: "متى ستلحق سيرتي "أصبح بالعالم الآخر "؟

وبمَ ينادى أمثالي فيها؟

"غاسل العار"؟

أم "حامي الشرف "؟

أم مجرد "قاتل" لأخته؟

أنا لا أذكر أني حملت اسمًا أو لقبًا قبل ذاك في يومًا ما.

شهادة ميلادي تقسم على أني لم أتعدَّ الثمانين من عمري..

وجثتي تؤكد أني تجاوزت التاريخ بخواء شاهق وبؤس!

هبطتُ ببصري بؤسًا لمرأى أغصاني المتعطشة للحياة، عروقها لُهّب زرقاء، لونها المستفز للمُقل مُطعّم بالوجع!

خائنة هي وكَذَا جسدي وقد بدّت عنهما عبائق الرحيل، وأنا الذي لم يرتوي من ودق الحياة أيَّما قطرة.

حملت جسدي المقدود بألمه من وراء المغسل، لطالما أزعجني رقادي كجثة وقيامي الذبيح!

فأنا لحاء جفت بُرَدتَه فتهشم، مفرغ من أي شيء إلا من كبريائه يحمله كل مساء ويحفر قبره في صمت.

هوى عكازي وقّبل أخشاب الباركيّه الماثلة تحت قدمّي.. أهوى إليها هربًا من استعباده تحت إمرتي أم ضجرًا من قبضتي الرطبة؟!

أهملت رقاده فوق حبيبته اللامعة وبرد قاتل يسبقني إلى غرفتي.

دفعت الباب بفجيعة الخيانة التي أصابتني لأجدها تفتح على تضاريس مجهولة!

ولجت إلى حجرتي الظالمة -عفوًا- المظلمة، حاولت محو ظلماتها بمقابس الأزرار المعلقة لكن عبثًا فالتيار انقطع كما في كل المرات..

تأففتُ آنفًا: آه عليك من جور زمنك الماكر يا طارق! كُنتُ طارقًا، تُطرق القلوب وتبلغ الحناجر لمرأي.

كنتُ طارقا وصلبًا كحديدٍ مصقول.

كنت ضخمً كعملاق.

كنت قويًا، شرهٍ بالطعام والشراب والمضاجعة..

أتعامل مع أفراد أسرتي كما تعامل يداي الحديد الذي يحرقني وأصهره، وتطرقه مطارقي فيطاوعه.

لا أستسيغ الأحاسيس والعواطف إلا فيما يخص ابنتي "رؤى" ولولا محبتي ومطاوعتي العمياء لرغباتها الصغيرة السخيفة لقيل عني أني رجل بلا قلب..

سحبت ساقاي نحو المسارات التي هداني إليها حدسي، فالعقل فيَّ قد فنى ونأى بنفسه عني هو الآخر!

بحثت عن علبة كبريت تنفعني في هذا اليوم العسير فحال عنه الظلام المبعثر على الزوايا..

وأنا أتحسسها اكتشفت أني تعثرت بسريري الحديدي الذي يأويني كل ليلة

لكنني ابتسمت من نزقيّ المفرط، فالظلمة عشيقتي الخالدة، تلازمني كظلي الرمادي لتزرع الخراب في كل فضاءاتي.

هبطت مرقدي لأريح شراييني من ضخ شذرات حياة لأطرافي الشائخة، تزملت باللحاف الرقيع وسرت أهدابي إلى السقف الغامق، ثم إلى الأرض العتيقة، إلى النافذة الصغيرة المغلفة بالإسمنت.

إلى الباب المغترب، ثم آخرًا.. إلى كوب الماء المنتصب على الطاولة المغبَرة!

تكورتُ في فراشي محتضنًا أوجاعي الأزلية، تخلى عني عكازي وتيقنت أنه لم يبق أمام خيبتي غير ذاك الكوب ليمنحني بعض الدفء والأمان.

ومن جوف العتمة الجائرة تسللت إلي صورهم وكلماتهم، يتقاذفها الدم والدمع.

"قاتل.. قاتل... بلا قلب... أنت وحش"!

صرختُ بكل الوجع الذي يلبسني: أصمتوا كلكم!

إني أهلوس، أنا لم أمُت لأراكم!

كنتم كلكم تقفون على خدمتي، تأكلون بعد شبعي إن بقي لكم ما تأكلون!

تشربون مما يفيض من مائي، والويل لكم أن ناديت أحدكم وتلكأ بالإجابة، أو استقرت نظراته متحدية غير خائفة، أو نضح لسانه بما يثير، وكل شيء قد بذلته عليكم يثير بي الهيجان يا حقراء!

أعلم كم كنت قويًا.. مسيطرًا.. بل ومجنونًا!

أعلم أن قوتي شحنة حيوانية في جسد لا تعرف التعب أو الكلل!

وروحي لا تعرف الرأفة أو الشفقة لدرجة أن زوجتي تمنت زواجي بأخرى لتزيح عنها مما تلاقيه على يداي.

وإذا ما أن انفجر جنوني فإني أتحول إلى وحش هائج أصم!

تزيد من إثارته الدماء، ولا يخفف من هيجاني الهروب أو الصراخ أو حتى الاستجداء!

جنوني لم يترك جسدًا من المحيطين بي إلا وترك فيه بصمته الدائمة.

فأخي الراحل عانى من يده اليسرى دهورًا قبل أن تزهق روحه بعدما لوّيتها له وتمتعت بكسرها.

أما ولداي الشقيان، فأحدهما فقد السمع تمامًا من أذنه اليسرى إثر صفعة أهديتها إياه.

أما الآخر فقد خلقتُ به علة دون صفعات، إذ أنه دائم التلعثم والرجفة وتستفحل حاله لدى رؤيتي.

أما زوجتي، فمن بين نساء الأرض جميعًا كانت تتمنى وتبتهل ربها ليهديني وأتي عليها بزوجة أخرى تحمل عنها بعض ثقلي.

عرفت هذا من ابتهاجها لزواجي من أرملة أخي الراحل، كانت تظن أنها سوف تستريح من مصارعة أنفاسي ولهاثي.. ستلهيني الأرملة وتتحمل شيئًا من عذابها معي، هه!

أظـن أن كلتاهمـا الآن تحـتفلان بعيـدهما الأول منـذ اسـتظلتا بظلـي الشيطاني!

أما رؤى، الصغيرة الماكرة، الجميلة العاهرة، فهي ابنتي العزيزة من زوجتي الأولى، جالبة العار كعمتها!

عمتها الزانية "خالدة"، أختي التي أُزهقت روحها بين يدي!

هجرت مضجعي الجامد إلى المرآة، نظرت إلى صفحتها مليًا..

دقق بؤبؤي المستفيض بمياهه الزرقاء أكثر، كأنه يلاحظ لأول مرة التغيير الذي طرأ عليَّ.

فرقة من التجاعيد بدأت ترسم دروبها بهمة وسرعة حول عيناي الجاحظتين، تتقدمهم الشعيرات البيضاء تغزو مفارقي وتحصد سواد شعري، إنها تنبأ عن علاماتها، تعلن عن الربع الأخير من العمر الغابر.

هنا أرسلت صوتي المحمّل بحقدي الذي أنبت بصدري شوكًا ودمًا:

"كلكن العاهرات مباح دمكن، وأولهن أنتِ يا خالدة"!

أذكرها طفلة صغيرة جدًا، بريئة جدًا، وطيبة جدًا، كنت أجلسها كالحمل الوديع فوق جناحيّ، وتذوب حواسها الخمسة في دورانـي بها، فمتى ذابت على أجنحة الغربان؟

كانت مميزة عن كل أطفال العالم، ولكم توغلت ألسنة الحسد في شراييني العارية فعاثت فيها فسادًا كلما نظرت أمي إليها وقالت مازحة -

- "كم هي تفاصيل وجهها مبهمة، غير واضحة، ومع هذا أحس أن لا أحد يقدر على فهمها غيري"

وما فتئتُ أن روّضتُ تلك التفاصيل على الوضوح منذ ترعرعت تحت سلطتي حال موت أمها.

وتمضي الأيام سريعة، تلتهم بعضها البعض، كأنها تتعجل رؤية النهاية.

أذكر أني فتحت باب منزلي الكبير، واستقبلتني نظراتهم المشبعة بالخوف المهول، دون أن أنفرط بها.

تمتمت بقسوة:"ألم تتعلم تلك الغبية قوانين من تستظل به؟"

ثم انحنى صوتي لنبرة أشد "أين أنتِ يا خالدة؟"

أتتني مهرولة بخطوات تعثرت فيها نبضات قلبها وسط صدرها خوفًا ورعبا.

قد شّبت على إحساس الخنوع وبات رفيقها الذي اعتادت عليه منذ تقيدت بذيل ظلي!

ندّت عنها شهقة متوجعة وأنا أسحبها بعنف وفِي ثوانِ دفعتها بقسوة على الأرضيّة الخشنة فتأوهت ألمًا، بينما نزلت إليها بجسدي الكبير وملامح وجهي أقرب لشيطان مجنون.

قلت لها كازًا على أسناني :" أيتها الكاذبة، منذ يومين فقدتِ وظيفتكِ ولَم تخبريني!، أين كنتِ تقضين تلك الأوقات دون علمي؟".

تعثرت الحروف فوق سطح شفتيها المتشققة من الخوف، رأيت تفاصيل وجهها المبهمة كما لم أرها من قبل، سرّها المأسور بين تلك التفاصيل بات يؤرقني!

قضيت عليها بصفعة حازمة وحكمًا بحرمة خروجها عن الباب شبرًا واحدًا، فلم تنبس بنصف آهة حتى!

أجفلت وزحفت خطوة للوراء وتبعثرت الدموع على صفحة وجهها، همست بنبرة استعطاف ورقة فُطرت عليهما: " خرجت الْيَوْمَ لأبحث عن وظيفة جديدة.".

تدخلت على حين غرة ابنتي رؤى، تقول بابتسامة قبيحة :"يا لكِ من فاشلة في الكذب يا عمتي!، رأيتك صباح اليوم تتسكعين مع ابنة جارتنا العانس"!

"رؤى" دومًا تترصدها، تهفو على خطواتها أو أخطائها، لا فرق، وكأنها عدوة لها لا عمة!

ابتلعت خالدة الإهانة وواصلت ما تقول باستجداء يستهلك طاقتها : "لم أكذب عليك أخي، لقد كنت أبحث عن وظيفة جديدة، أقسم لك كنت كذلك، بحثت كثيرًا لكن".

قاطعتُها بنفس الابتسامة والنبرة المهينة :"..لكنكِ لم تكوني بمواصفات جيدة كفاية"!

ابتلعت ريقها وعيناها تتلبدان بالدموع، لأردف وأنا أنظر إليها بتذمر حاقد :"حظي تعس!

لو كنتِ امرأة مليحة كفاية لكنتُ الآن متخففٍ من حملك الثقيل"!

فتساقطت دموعها مدرارًا وهي تهرب متحججة بإنهاك مفاجئ!

ترققت حينها ملامحي واتسعت ابتسامتي لاقتراب مدللتي وهي تبادلني بذات الابتسامة ثم همست بنعومة :" أنها تكذب عليك يا أبي، لديها ما تخفيه عنا.. شعر بذلك"

لم تخطئ بما قالته فقد ظل قلبي يرقص على حبال الشك تجاهها، إلى أن جاء آخر يوم لازلت أذكره كهذه اللحظة..

كان ذلك اليوم قد لّها بها أيضًا، وكان لهوًا قاسيًا.

قاسيًا جدًا على جسدها الضعيف الذي يئن تحت آثار الحمل فتعض على شفتيها تكتم الشكوى.. المهم أنه علم بالأمر وانتهى وقد عاقبها بطريقته التي تمتعه.

غدا وجهها شاحبًا شحوب الأموات وهي تنتقل كشبح باهت في أرجاء الشقة الحقيرة التي باتت قبرها الإجباري فوق الأرض..

رائحة الموت تفوح منها، ميتة هي منذ زمن ولَم تعترف بذلك إلا الآن..

قد استسلمت لنعيم وهمي يدعى بالحب والذي قادها لقبرها هذا، فتعفنت فيه بخطاياها وأذلالها وهوانها على الناس أجمعين، وقبل ذاك كله على نفسها أولًا!

من نافذة الغرفة الصغيرة اخترقت سهام الشمس زجاجها القذر فحدقت عيناها في تلك الذرات الهشة السابحة في الضوء وتمنت الاختفاء.

وإن تمنت.. هل يجوز لها تحقيق تلك الأمنية؟!

رفعت لوجهها المصفر بفعل التعب أنامل جافة تعكس جفاف روحها، تبادرت إليها الأيام التي ألتقت فيها بطلال، الزميل المرح بذات المكتب الذي عملت به سابقًا.

كان يسقيها مالم تطعمه في حياتها، الحب وإدراك قيمة وجودها!

فلم تعلم أن الأكسير الممدود من أميرها الفاتن لم يكن إلا سُمًا قد صنعه أمثاله لأمثالها، فتمثل لها كمستقبل سينتشلها من اضطهاد أخيها طارق وسوء معاملته لها.

شعرت برطوبة بشرتها الجافة فأدركت أنها تبكي دون أن تحس..

همست وبكاؤها يشتد عويلًا:" أنتِ من فعلت هذا بنفسك! استسلمتِ لكلماته الملغمة بإغواء وردي، وغرقتِ في دهاليز أوهامه الخادعة، وأدركتِ متأخرًا جدًا أنه لم يكن إلا مستنقع قذر"

أجفلت بقوة وقرع على الباب يداهم أفكارها البائسة، ولانت عيناها في استسلام مرير..

لا بد أنه أَتَى ليأخذ ما نسيه، قد أتصل بها صباحًا آمرًا بهستيرية أن تسبقه للشقة التي استأجرها ليفرغ فيها نزواته معها كل مرة مذ أوقعها بمستنقعه الآسن.

حدقت لأشعة الشمس مرة أخرى، لم تتخلص من عادتها بالنظر إليها كلما اسُتنزفت وأهلكتها المواجع، وكأن تلك الخيوط الذهبية الباهتة قبس من نور خالقها!

همست بحرقة قلب ينازع وروح لم تعد تريد إلا الخلاص :"أنقذني يا رب، أنا لا أستحق منك نعمة الخلاص لكن، ليس لي غيرك."

قرع جديد أشد خشونة من أوله فتنهدت، وهرعت يداها تزيل قطرات الدموع خلال تحركها لقدرها المكتوب.

فتحت الباب وهي تطرق برأسها بينما تهمس "مرحبًا"..

لم تحصل على رد ولَم يتحرك الظل الجاثم أمامها، رفعت وجهها باستغراب فبهتت وتحجرت ملامحها بينما تحاول التراجع للوراء بخطوات غير ثابتة وهي تهمس "أخي"!

ذلك المساء لم يشبه المساء في شيء..

أصبت بنوبة سعار مفرطة لدى معرفتي بخبر خروج خالدة دون إذني للمرة الثالثة خلال شهر واحد!

فاجأني اتصال رؤى فلا أذكر مما قالته إلا ما أجج النيران في عروقي يومها..

"أبي، ألحق بعمتي فورًا، أتاها اتصال غريب وقالت وهي مغادرة على عجل أنها قد حصلت على مقابلة لوظيفة ما، لم أصدقها وأشعر أنها تفعل شيئًا ليس جيدًا بالمرة"!

استلّت السكين وهرعت بسرعة من مكتبي القريب للمنزل إلى سيارتي، ولمحت خلالها خالدة تعرج لداخل سيارة أجرة بوجه هالك منهك، كأنما كانت على موعد مع الموت!

ترجلت على عجل وأسرعت أقدامها تبتلع الدرجات الموصلة للشقة لتلجها وتقفل عليها بابها، يتبعها شاب ممشوق القوام تتسم ملامحه بالثقة

وأمام المشهد المبتذل انكمشت:"ألهذا الحد كُنت أحمق يا طارق؟"!

حاول عقلي أن يفهم شيئا من هذا المشهد الذي خنقني ووضعني على عتبة النهاية لجميع عوالمي، لكنه لم يفلح!

أعترف أني أكرهها، أمقتها، أعترف أني شتمتها البارحة، لكن لا يجوز لها أن تنتقم مني بهذا الشكل!

أقسمت بيأسي:سأنهل من دمك، وعليكِ ألف لعنةٍ يا خالدة!

انتظرت تفريخهما الأخير، حتى انسل العاشق الممشوق من عش الغرام، فأقبلت أكاد أخلع الباب بقبضتي وباغتها في حضن الموت تنتبز الزوايا خوفا وهربا.

رقصت مُلقها على لحن النصل عند انسلاله من بين تلافيف قميصي الأشيب.

أخيرًا، أنهت رقصتها المذبوحة وابتسمت إلي بحزن البشرية جمعاء ثم همست ودموعها تسابق الغيث انهمارًا:"أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله،.. غفرانك يا رب... اغفر.. ل.. ي.."

وانقطع لسانها عن التردد والنصل الخائن لصاحبه يحفر بصدرها خطوط متعرجة..

مزقتها، مزقت قلبها، ومزقت الستائر الوثيرة، السجاد العتيق، الأرائك المتوسدة بالشقة،.. ومزقتُني!

شعرت بأنفاسها تتهاوى بذل سافر ويختم همَّسها المشهد المريع وهي تهس لعينيّ الدامعتين:" أشكرك.. أخـــ.. يي"..

وطوت عيناها صفحة النهاية وانفرجت شفتاها عن آهة أكاد أجزم أن سمعها ثامن جار!

الساعة تزحف نحو منتصف النهار، وموتها يزحف.. نحو نهايته!

بدأ البرد يحتل أطرافها الجافة، ومنذ الطفولات الباكرة وهي عامرة بالبرد والخوف..

هي من اختارت المهانة عندما رخصت نفسها ومنحت جسدها بغباء لرجل لا يستحق، فبات لزامًا عليها أن تسير معه في الطريق الذي يحدده حتى وصلت للنهايات السائدة لأمثالها!

فخرجت ثائرًا أعمى، لم أجد غير نفسي تركض وراء ابنة الجيران محاولًا قتلها، صارخًا كأنما رجمتني الأبالسة:" كُلُّكُنَّ عاهرات!" حتى أنقض علي لفيف من رجال الشرطة فأوقفتني عنها.

أخيرًا تحركت ضمائر الشهود حين اتصلت بالشرطة، وانهالت اعترافاتهم حين وقعت في قبضتهم، متفاخرين بكونهم سمعوا صوت

الطعنة الأولى، والثانية، وصوت صراخ جارتهم، إلا أنهم آثروا الصمت انطلاقًا من عاداتنا وقيمنا التي تقدّس الخصوصية وحرية الأفراد الشخصية، وخوفًا من أن يُخدش حيائي أثناء ارتكابي للجريمة.

وتأتي المهالك تِباعًا..

فعلمت خلال قضائي الحكم بالسجن لمدة خمس سنوات - المدة المحددة لقضايا الشرف - أن زوجتيّ الاثنتين قد طلبتا الطلاق، تلتهما الفجيعة الأخيرة بابنتي رؤى!

فتكت فعلتها بقلبي المثخن بالجراح، نبأ هربها مع شاب ما خارج الوطن قضى علي بجلطة دماغية نتج عنها شلل بجزئي الأيسر، تعفنت خلالها فترة لا بأس بها بالمشفى حتى عاد شعوري بما شُل مني.

ورميت بعدها في دار للعجزة بعد طلاقي لزوجتيّ ورحيلهما بأبنائي بعيدًا جدًا عن قاتل أخته "المجنون" المدعو ب "طارق".

آدم

بقلم....أماني محمد القرني / السعودية

التهمتُ أُقمة المُثلّجات السّائغة واللذيذة تلك بِمنتهى الاستمتاع، بينما هي لَم تَكُن كذلك، لَم تَكن مُرتاحةً أبدًا لتلك النّظرات التي أَخَذت تلتهمنا من كل ناحيةٍ وهي تقوم بإطعامي لأصناف الحلوى..

وبالرُّغم من مقدرتي التّامة على تناوله بطريقتي الخاصّة، غيْر أنّ الآنسة إيڤا لديها قوانينها الخاصّة التي تُحرّم عليَّ ذلك أمام أنظار الناس..

تأوّهت بخيبةٍ مُزيّفة بداخلي وأنا أردف بيني وبين نفسي..

"أُمّي..!

بحقّ الله..!

أَلَن تعتادي على هذا الأمر؟!..إلى متى؟"..!

استفقت من نقاشي الهامس والقصير ذاك وأنا أقوم بالتهام اللّقمة الأخرى بغاية اللّذة والتمعّن في طعمها السُكّري والبارد، ونكهة الأناناس قد بَدت جليّةً في مَذاقها..

"آه كم أحب الأناناس"..!

في الحقيقة أنا أُحب كل شيءٍ في هذه الحياة، كل شيء..!

ما عدا هذه الملامح التي تصنعها والدتي كُلّما خَرجنا سويًّا إلى أي مكان، وعندما يبدأ الناس بالنّظر إلينا بتلك النّظرات الغريبة والطريفة عندما تقوم هي بإطعامي رغمًا عني، فضلًا عن تركي لأفعل ذلك بنفسي وبطريقتي المُضحكة والغريبة تلك..

ألَم يحِن الأوان لِتترك والدتي كل هذا الامتعاض والحَرج من نَظَراتهم؟..

إنّها تعيش بدَلًا عنّي، بِحق!، هي من تشعر بالحرج بدلًا عنّي، هي من تتألّم بَدلًا عنّي، هي من تُحارب هذه الحقيقة بدلًا عنّي، هي المُعاقة ولست أنا..

تعيش حياتها وحياتي مَعًا..

ولكن لا بأس، هذه والدتي، جميع توسّلاتي إليها بأن تكفّ عن تعذيب وإنهاك نفسها منذ سنواتٍ طويلة قد ذهبت سُدىً، وستذهب سُدىً إلى نهاية هذه الحياة..

فهي لا تَرى بأنّي ابنها، صاحب الجسد والرّوح المُنفصلين عنها، بل هي شخصٌ مُستبد ومُتملّك! هي تراني جَسدها وروحها الآخرَيْن..

"ما كُلُّ هذا النقاش الدرامي المُفاجئ يا أنا؟"...

عُدت لأستمتع بتلك المُثلّجات مُجددًّا برفقتها وأنا أُراقب الألعاب النّارية المُذهلة التي انطلقت في سَماء موسكو مُنبّئةً بحلول العام الجديد..

قُشعريرةٌ من الفَرح سَرت في جَسَدي لتنطلق جرّاءها صرخةٌ قصيرة وشغوفة من صدري وأنا أرى ليل سَماء موسكو قد تبدّل في لَحظاتٍ قصيرةٍ إلى نهار..

اِلتفتت هي مع تلك الابتسامة اللّطيفة الممزوجة بضحكةٍ صامتة وهي تتأمّل تفاعلي الطّفولي مع هذه الأضواء.

"ما الأمر أُمّي؟..

ما معنى هذه النّظرات؟"..

هتفت بذلك في حَرجٍ مصطنع وأنا أرمقها بنظرةٍ ناقدةٍ مُزيّفة..

"أوه آدم بحقّ الله!.. أنت في السابعة والعشرين"..!

هتفت بذلك دون أن تنظر إليَّ مُحاولةً استفزازي..

لَم أستطع الرّد عليها فقد انطلقت مجموعةٌ أخرى من الألعاب النّارية لتنفجر بألوان العلم الرّوسي، فلَم أشعر بنفسي وأنا أشهق مُجددًّا في غاية الانذهال والسّرور..

أمّا هي فقد راحت تُشغل نفسها بِتناول المُثلّجات مُحاولةً كتم ضحكتها المنحرجة من تصرّفاتي..

•••

بالكاد انتهت الاحتفالات في وقتٍ مُتأخّرٍ من الليل، وقد غادر كثيرٌ من الناس سَاحة قصر الكرِملين..

فَنهَضت من مكاني برفقة والدتي وأخذت أُساعدها في حمل أواني أطعمتنا التي جَلبناها سويًّا للاحتفال..

وقد قررّنا في هذه الليلة أن نعود للمنزل مشيًا على الأقدام بدلًا من استخدام الحافلة..

وبالرّغم من قلق والدتي من أن تتأذّى قَدماي من المشي، غيْر أنني أقمت معها معركةً قصيرةً للسّماح لي بالمشي كل هذه المَسافة كما هي العادة كل عام..

كان الأوّل من شهر يناير..

ولِحسن الحظ، فإن القَمر كان مُقمرًا ومكتملًا في تلك اللّيلة..

وكان وميض نوره الخافت والنّاعم ينعكس بِشكلٍ فاتنٍ على أكوام الثّلج البيضاء التي غطّت الشوارع والأرصفة..

خَطرت ببالي فكرةٌ ممتعة بعض الشيء، وجنونيّة بالنّسبة لوالدتي..

غير أنني أعشق مُعاندتها واستفزازها دائمًا..

أسرعت لوضع سلّة الأواني جانبًا لأجلس بوسط الرصيف وأنا أهرع لخلع حذائي وسط تعجّب وذهول والدتي ممّا أفعله..

"آدم؟!!...توقّف عن ذلك بحق الله!!..ستتأذّى قَدماك"!

لَم أُبالِ بِزجرها لـي واستمرّيت بِخلـع الأصـابع الاصـطناعية من مُقدّمـة رجلاي، ثم بعد ذلك نَهضت لأركض بصعوبةٍ قليلة على أكوام الثّلج وأتحسسّ برودته على باطن قدماي بغاية الاستمتاع والنّشوة والقشعريرة اللذيذة..

"أوه يا إلهي!!..متى سوف يَكبُر هذا الفتى؟"..!

هَتفت هي بذلك وهي تجلس مُستسلمةً على أحد المَقاعد جانبًا منتظرةً بأن أنتهي من فِقرتي الطفوليّة والتهريجيّة تلك..

أَعلم أنَّ هذا مُحرج، بالنّسبة لِشابٍ يعمل كَمُعلّمٍ للرّياضيات! ولـه العديد من الطّلبة والطالبات..!

سَقطتُ بشكلٍ درامـي ومُصطنع على كومـة ثلجٍ قريبـةٍ مـن والـدتي، وأخذت أحرّك يداي ورجلاي بهستيريّةٍ عليها غيْر مُبالٍ بنظرات المارّة لي، وكذلك نَظَراتُ والدتي التي تحوي الكثير من الوعيد لي..

فجـأةً، أخـذت أرفـع صـوتي بكلِّ نَذالـةٍ وأنـا أوجّـه حـديثي للمـارّة علـى الرّصيف لكي أزيد من استفزاز والدتي..

"مرحبًا..!!

أُدعى آدم بيلينسكي..!!

وهذه والدتي..!!

تُدعى إيڤا بيلينسكي..!!

وأنا أعمل مُعلّمًا في مدرسة أنجليوف الخاصّة"..!!

في هذه اللّحظة، لَمحت والدتي وهي تنهض من جلوسها وتهرع لتلتقط كومةً من الثّلج لترمي بها على وجهي لكي أخرس..

فلَم يكن منّي سوى أن أنفجر ضاحكًا بشكلٍ عنيف، فقد نِلت مُرادي..!

كَم أُحبّها عندما تكون غاضبةً وقاسية، وكم أمقتُ عندما تُعاملني كطفلها الصغير والعاجز..

"آدم!! انهض وارتدِ أصابعك الصّناعية بسرعةٍ قبل أن تتأذّى قَدماك"..!!

هتفت بذلك بانفعالٍ وامتعاض وهي تجذبني بصعوبةٍ من على الثّلج..

"أنا لَم أقترض مبلغًا من المصرف لتتعامل مع هذه الأطراف الباهضة الثّمن بهذا الإهمال آدم"..!!

نهَضت بإحباطٍ من على الثّلج، لَم أكُن مُحبطًا بسبب غضّبها وزجرها لي، بل كنت مُحبطًا لأنني لم أكُن أملك أصابعًا في يداي لكي أجذبها لتقع على الثّلج وتُشاركني مُتعة التقلّب عليه..

•••

عُدنا إلى المنزل وقد كانت هي مُتعبةً للغاية بعد أن كررّتُ تقلّبي على الثّلج لأربع مرّاتٍ على طول طريق عودتنا للمنزل..

ذهبَت هي للنّوم أمّا أنا فبقيت مستيقظًا على الشُّرفة، أتأمّل المباني وأنا أفكّر بِسَرحانٍ بشأن العملية التي سوف تُجرى ليداي الأسبوع المُقبل في مستشفى يواكيموف، والتي انتظرناها أنا ووالدتي منذ ما يقارب الأحد عشر عامًا..

كانت الرّياح باردةً كالصّقيع في الخارج غيْر أنّني لم ألحظ ذلك ولم أهتم..

بقيت فقط أُفكّر بتلك الفكرة الُمرعبة التي دائمًا ما تتكرّر في بالي وخَلَدي..

لَو أنّ والدتي قررّت التخلّي عنّي لِذلك الملجأ قبل سبعةٍ وعشرين عامًا عندما اكتشفت بشأن تشوّهي الخلقي، وبشأن أنّني لا أملك أصابعًا في كِلا يديَّ وقدميّ..

ماذا لو عِشتُ حياتي بدونها..؟

سَرت قُشعريرةٌ من القَرف بداخل صدري لِهذا التّساؤل المُثير للاشمئزاز والخوف معًا..

لَم أكُن محظوظًا أبدًا لأن أكون مُطّلعًا على هذا السّر القبيح، غيْر أن جدّي الحبيب كان ثرثارًا بشكلٍ سخيف..

تنهّدت بعمقٍ وكأنّني أحاول أن أنثر تلك المشاعر السلبيّة من على كاهلي..

وأثناء انغماسي في بحر سَرَحاني هذا، شعرت بطيف شخصٍ ما يقف خلفي..

تنهّدت بأسىً لألتفت وأنا أهتف بخيبة..

"أُمّاه..!

ما الخطبُ الآن؟..!

لِمَ لَم تنامي؟"..

لَم تُجبني بل تقدّمت بِخُطواتٍ بطيئة لتجلس بهدوءٍ بجانبي وهي تلفُّ معطفها الصّوفي حول جَسدها..

"لا أستطيع النّوم..

فَموعد عمليّتك يشغل بالي كثيرًا آدم"..

أَلَم أخبركم!، يا إلهي إنّها تعيش بَدلًا عنّي..

اقتربتُ منها لاحتضنها بيَداي العاريتين من الأصابع وأضع رأسي على كَتفها وأنا أنفث الهواء من صدري..

"أُمّي..

توقّفي عن كل هذا أرجوك...

لا أريد جَسَدًا كاملًا..

أريدك أنتِ فقط

فأنا كاملٌ بك ومعك أنتِ أُمّاه"..

شَعرت بجسدها يهتزُّ بِخفّةٍ ليهتز رأسي مُتجاوبًا معه جرّاء ضحكتها الصّامتة تلك.. لَم تُعلّق على جُملتي تلك، بل اكتفت بإمساك يدي وتقبيلها بشفتيها الدّافئتين..

أغمضتُ عينياي بِعُمقٍ لأستمتع برائحة عطر الياسمين الذي تضعه على معطفها..

تلك اللّحظة هي كُلُّ ما أريده، هي جُلُّ ما أطلبه، هي نعيمي وفردوسي الأبدي.. كُنت مستندًا على الجسد الذي خُلِقت منه، ومنه أعيش، ومن خلالِه أتنفّس وأحيا..

معها، أنا طفلٌ إلى الأبد.. معها، أنا كاملٌ وسليم.. وبدونها، أنا ناقصٌ وسقيم..

"سهاد"

بقلم.. أسماء عبد الوهاب الخولاني /اليمن

كالعادة تتجمع بمنتصفِ حلقي كغصة، وللمرة الواحدة بعد الألف وأنا أبصقُ ذاكرتي باللونِ الأحمر. أبصقها على ورقٍ حكم عليهِ بالإعدامِ كتابةً حتى الموت، مع تحميلهُ معاناتي الماضية..

كلما طرقت ذاكرتي بابَ العودة؛ كلما طرقَ على رأسي ذنبَ العيشِ بهيئةِ سطرٌ مهمل، عنوانٌ مشبوه، وربما نفاياتٌ هزيلةُ المظهر..

سأتوقف على عتبةِ اللملمةِ النفسية.

هنا أعبر الدخول وأصل إلى ما بعد النهاية، إلى غايةِ الأحلام تحت البسيطة، سأتوقف عندما أصل إلى عمقِ التعفن بصيغة التعفف ـ الجوع آنذاك ـ وأنتهي بقولٍ سأم لفظهُ بين شفتي "أريد العيش."

جملةٌ ترديدها بين أكوامٍ من جثثٍ قيدَ الموت؛ تمامًا كالصراخِ في أذن أصم، فبأي منظور أطلب الحياةَ بحقِ الموتى! وأيَّ طريقٍ سيُعبد نفسهُ من أجلِ أموات!؟

كل ما حولي يدعوني للنفورِ عن المعايشة، عن الواقع المُبهر بالملحِ الخالص، الذي يصنع مني مجموعة بعثراتٍ متعثرة الخطى، أحدها في

صفِ المدرسة على كرسي قد يحسب نفسه مشؤوم الحظ؛ لأنني جلست عليه.

يوم ذاك وقفتُ على صوتِ الأستاذة، نادتني بنبرة أعرف أنها تخصني من بين الجميع

"سهاد اتبعيني"

تبعتها وكأنني ذاهبة إلى الموت بقدميّ، كنت أعلم ما الذي تريده، ولكنني وفي كلِ مرة كنت أوضع في هذا الموقف كان يتلبسني الارتجاف.

التفتتْ نحوي وبذات النبرة الخشنة والملامح المنقبضة قالت:

"سهاد، كم مرة أخبرتك لا تأتي إلى المدرسة بهذهِ الملابس الرثة! وكذلك دفترك، لا تجمعي دفتر الواجب والحصة معًا؛ هل تحاولين إغاظتي يا فتاة!؟"

صمتُ كالعادة؛ فأردفت

"لا أصدق أنتِ تتجاهليني الآن!

ألا يكفيك منظرك المخزي من بين الجميع!؟

هذا مستفز ومثير للشفقة"

"لن أعتذر كالعادة؛ فأنا لم أخطأ.

هل تعلمين ما هي الحياة التي أعيشها حتى تتعمدي جرحي في كلِ مرة؟

أستاذة أنا هنا لأتعلم، لا مظهري، ولا دفتري يمثلان مستواي."

لا أعلم من أين أتتني الشجاعة، لأحادثها بتلك الطريقة!

كل كلمةٍ مني أثارت في ملامحها الصدمة كما احتلتني الصدمة من نفسي أيضًا؛ إلا أنني كنت أرتجف من الداخل وتوقعت ما لا يُحمد عقباه، ولكنها فاجأتني بردها المرتبك الركيك

"سهاد عزيزتي لم أكن أقصد"

أمضيت اليوم بين فوضى من المشاعر، بين السعادةِ لأني عبرت عن شيءٍ بداخلي والألم أيضًا؛ فكم كنت أكره الحديث عن حياتي!

لم أكن أرغب بالتبرير عن بساطة لبسي أو مظهري بالعازة..

كنت وما زلت أكره الفقر حق الكره؛ فهو عدوي الأوحد؛ هو المجرم الذي قتل بداخل أخي معنى العائلة؛ ليهجرنا مُخلفًا ورائهِ أُمًا قعيدة، وأربعَ أخواتٍ تصفعهن أيادي الجوع، وأبًا ماتت روحهٌ بغيابِ رجلهُ الوحيد، السند الذي لم يلحق حتى الاتكاء عليه.

مسكينٌ أبي أعتقد أن له جدارٌ يمكنه الاستناد عليه إذا ما غدرتهُ الأيام، ولكنهُ ويا للأسف كان مغدور من كلِ الجهات.. الحياة، والقدر، وابنه الذهبي - كما ظنه - كلهم غدروه من البداية..

منذٌ كنتُ في السابعةِ وأنا أخشى خروج غرفتي ليلًا، أخشى رؤية أبي يجلس على السجادة، يبكي طالبًا المغفرةَ من الله.. وما زالت الذكرى الأولى لصوت أمي وهي تهمس لأبي الباكي:

"أرجوك يا همام دعنا نموت على أن ننام وفي بطوننا حرام، يا رجل كيف لنا أن نأكل من مالٍ مسروق"!

حينها فهمت السبب الذي يجعل الليل يمر وأبي ساجدٌ يطلبُ مغفرةَ كل يومٍ ننام فيه وبطوننا لا تأن جوعًا.

ذاك اليوم استمعتُ إلى ردِ أبي بعناية، وعندما سمعته يجيب أمي بخفوت

"أهون من رؤية أطفالي يموتون وأنا أنظر لهم، هذا أهون، أهون"

أردت أن أخبر أبي بالكثير كأن أقول لا بأس دع الموت ينهشنا مرةً، وعشرةَ ذلك أهون، أهون.. ومرت الأيام وأبي يبكي ويرجو من الله العفو.

تمنيت أن أسمعهُ يطلب الرزق أيضًا، ألا يعلم بأن صاحب المغفرة هو ذاته صاحب الرزق!

ربما لو أن أبي لم يسرق خشيةَ موتنا، لو التجأ إلى الله الرازق لما عشتُ ذاك الحين، والذي تعصف مشاهدهُ الآن أمامي!

"أبي أرجوك أنا لا أريد، ما زالت صغيرة، ماذا عن دراستي؟"

أمسك كلتا يدي وهيئت أذناي صوتهُ الحنون كصوتِ وحشٍ يحملني ذنبَ حياتهِ وحياة عائلته.

"سهاد قلب والدك، ترغبين بموت أخيك وموتنا!؟ جميعنا سنموت إذا لم تتزوجيه، صدقيني إذا تزوجتِ به سيتغير الكثير الكثير"

غالبًا اسمي "سهاد" يذكر قبل الحديث المرجو من كلِ شخصٍ يحادثني، وكأنهم يذكروني بدور السهاد في حياتي، وحياة كُلًا منهم، السهاد الذي أخذ نصف أعمارنا إما جوعًا، أو تفكريًا، وحتى سجودًا، وبكاءً...

"هناك فرح، لجين، قزوين، لم أنا؟"

تساءلت وانا أنظر للجمع الصامت حولي، حتى مالك أخي الذي عادةً ما يهدنا بصوته وصراخه، صامت أيضًا!

هل لأنه عاد عودةً عاصفة، مدمرةً لشخصي بالـأحرى!؟

حدثتهُ قائلة:

"خمسةَ عشر عامًا، عمري خمسةَ عشر، لم أجدك عندما كبرت، لم أكن أعرفك إلا في دعاءِ أمي المكلوم بغيابك، في صوتها المبحوح وهي تدعي أن تكون بخير. أتعلم ما الذي كنت أفعله عندما تحتضن أمي صورتك وتنتحب!؟

كنت أنغمس بين ذراعيها علها تدرك أن أربع فتيات بحاجةٍ لهذا الحضن أيضًا، حضنها البارد بفقدها إياك. أين كنت عندما شربنا الماء بكمياتٍ جعلتنا نتقيأ؛ كي لا نسمع الجوع؟

كيف أمكنك ترك الذي رأى في عينيكِ رجلًا سيقوم به؟ أبي الذي ظن أن الحياة لن تكون إلا بك، وأن الرزق لن يأتي إلينا إلا عن طريقك، ولكن ماذا فعلت؟

كنت أول العثرات عندما هربت بمال أبيك، وأخذت معك مصير أسرةً بأكملها..

عشنا مركونين على بابِ الضياع، وكنتَ تجمع المزيدَ من المصائب لتعود لنا بها اليوم، وماذا أتزوج بمن تدينت منه**!؟** ما ذنبي لتأخذ بخطيئتك**!؟"**

ظننت أنني أصبحت خطيبةً على منبرِ من الجروح، واعتقدت أن محاضرتي التي انتهت بجعل الوجوه مخضبة بالدموع، ستفي بعتقي من هذا الزواج. كنت أنتظر إجابة، إلا أنهم انسحبوا واحد تلو الآخر، وتفرد الجو بأنفاسي وشهقاتي.

"وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأيّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ"

كنت أتساءل ولا إجابة تسكت صوتي الداخلي الذي يردد الآية... وكانت البداية لإصابتي بطنين الأصوات، صوت القهر، صدى التهاليل لعرسي، صوت تلك الجملة التي تمنيتها أن تتحقق "أريد العيش."

على مسامعي الكثير عدا اسمه كانوا يقولون "العريس".

لم أكن أعلم أن لنا أقارب، هل كنا منعزلون، أم أنَّا كنا منفيون**!؟**

لم يعد هناك صمت، وخلال أسبوع تغير بيتنا، أثاثٌ جديد، أناسٌ جدد، وأحياءٌ جدد، وموتٌ وحيد ألا وهو موتي، كل هذا ذكرني بقول أبي:

"سيتغير الكثير الكثير" كان متأكد من ذلك.

كُفنتُ بالأبيض وحُملتُ لنعشِ الزواج، ومن يومها وأنا أعيشُ في الأبيض..

لـن أنـسَ الصـورة التـي التقطهـا لـي "العـريس" بعـد ثمانيـةِ أشـهر مـن زواجنا، صورةٌ تثبت أن السهاد تركني في شهري الخـامس من الحمل، تركني بين أحضانِ الأبيض وطنين الأجهزة، كانت صورةٌ مثالية تحوي جسدي الطفل المستلقي على سرير الموت، وهو يحمل بداخلهِ طفل.

عندما استيقظتُ من سباتي الذي دام لأربعة أشهر بسبب حملي بسنٍ مبكر، كان قد تغير أكثر من الكثير: مثل هروبِ مالك للمرةِ الثانية؛ إلا أن هروبهُ هذهِ المرة باهض وكان الثمن موت والدي...

تغير كل شيءٍ عدا السهاد، وأضيفت أصواتٌ جديدة لحياتي، وهي أصوات أطفالي.

لا أعرف سبب فتحي للبابِ المؤدي إلى رواقِ الماضي، ولكن الذي أعرفهُ حق المعرفة هو أن الماضي يعيش معي، وأن من زارهُ الفقرُ يومًا لن ينسهُ السهاد عمرًا.. وها أنا اليوم بعد ثلاثة عشر عامًا، بعمر الثامنة والعشرين أتوقف على صوت موتي:

"سهاد، كفاكِ سهر"

وما زال اسمي يذكر قبل الحديث، لربما بمولدي بدأ السهاد في حياتنا، ألهذا أسماني أبي سهاد!؟... أجبت موتي، وحياة عائلتي، قاتل فقرنا، العريس (زوجي) الذي وهبني ثلاثة أطفال، وربما بعض الحنان

"آتية"

قضية مغلقة

بقلم.. أمنية مصطفى أحمد / مصر

« ولأن قضاياهن مغلقة قبل أن تفتح، وجب علينا فتحها»

قضية مغلقة

- صعيد مصر، ١/٢١/ ٢٠١٤-

إنها تقف زهائها -ابنتها- أمام منزلهم ولجج الدموع تربت على صدغ الابنة، أو ربما تواسي ودق عانقت السماء وقت الفجر به، بينما طفلة بتلات زهرتها ما لبثت أن رحبت بربيعها الخامس عشر، وها هي تجافيها الحياة برحيلها من وطنها الصغير-بيتها- أشبه هو بالهرب بعيدا عن كونه وداعٌ مثخن بكدمات الوجوم، وانفلات أعصاب من كشف ما هي مقدمةٌ على فعله...

«سارعي إلى محطة القطار، استقلي قطار الخامسة فجرا، لا تبقِ هنا ثانيةً واحدة و إلا قتلك أبوكِ، لو حدث لي شيءٌ لا تسمحي لنفسك أن تباع خوفا من الموت، موتي ولا تتزوجي ذلك الخَرِف أو حتى غيره، اهربي يا مريم»

كانت أصداء آخر كلمات الأم لمريم رنانة، ليس فقط في أذن الابنة التي ذُبحت مهجتها حين أبصرت أباها الباغي تسارع قدماه الريح نحو أمها، وأوصاله مجرمة تعينه على حمل بندقيته التي كتبها لبث أن أستأصل بها روح الأم الطاهرة... الروح التي خانته، وأعانت ابنته على العصيان.

وقبل أن ترى أمها تعانق الأرض بدمائها هربت... كما أمرت أن تفعل، أن تهرب منهم جميعا، ألا تكون مثلها وتضحي في موضع غير موضع التضخية، أن تنعتق من جسدها إن وجب عليها حتى لا تتزوج وهي طفلة ما لبثت أن غادرت مهدها... وأن تغير مسار سيناريو أملت أمها أن ينحرف بعيدا عن طريق الموت منذ الصغر، موت المهج داخل أجساد تعافر لتبقى رغم الأرواح الأبية ضد البقاء .

****

تلاشت ساعات رحلتها الأربع في بكاء أزلي، هي نفسها لا علم لها على ماذا ترقرقت العبرات على وجنتيها هكذا، ألأنها هاربة وهي طفلة بلا سند؟ أم أنها تتجنب التفكير في روح أمها التي دالت تحت قدميها بينما تدير ظهرها نحو الرحيل؟ ربما تواسي مهجتها المرعوبة من مغبة ووقع ما أقدمت عليه، لكنها واثقة من العهد الذي قطعته ورسخ في فؤادها.

حتى حين قابلها ابن خالتها الأكبر في محطة رمسيس بالقاهرة، يقودها إلى عش خالتها الصغير، مأواها الجديد من مخالب مدعي القرابة كانت واجمة، معلِقة مقلتيها بالعدم، وحين شرع يسألها عن خالته نبيلة - أمها- وعن أحوالها رضخت قواها للسقوط بين يديه فاقدة لما تركته لها الحياة من وعي.

حركت أهدابها في انتشاءٍ، إحساس بحركة حولها لم ينقطع منذ خمسِ قائق، لكنها راضخة للضعف تحاول البقاء في عيائها، وألا تفيق، سبات سرمدي هو ما تتمناه.

صدحت خالتها بصوت جهوري جوارها:

«استيقظت...استيقظت»

رنت لها في وجوم وورع، لم يمر الكثير حتى طفق جمع عائلة خالتها يتدفق إلى الغرفة وفضول يتغلغل في ثناياهم عن أحوالها غير المطمئنة.

عبراتها تتشبث بأهدابها ورجاءٌ معلقٌ في مقلتيها لخالتها أن تبقى معها وحدها.

تلاشى الجمع وبقيا وحدهما، لم تنكر فاطمة قلقها، ووجيب قلبها الذي كاد يقتلعه من موضعه، ابنة أختها في حال يرثى لها وأختها الصغيرة لا أخبار عنها منذ الأمس لتشفي غليلها... ألا يجب أن يموج قلبها كمراجل تغلي؟!

أخرجت مريم دفتر قديم اختبأ طوال رحلتها في ثنايا حقيبتها، مدته بأوصال مهزوزة نحو فاطمة وعبرة حارة انزلقت على وجنة خالتها.

عانقت فاطمة دفتر أختها الذي أوقعها في براثن ذكريات أليمة، فتحته وسيلٌ جارف من قتاد يجرها نحوها تلك الذكرى حين كشفت أمر دفتر نبيلة منذ سنوات، وأبقت اكتشافها سرا حتى يومنا هذا.

******

-١٩٩٩\٥\١-

«عزيزي لا أحد

اسمي نبيلة، واليوم أنهيتُ آخر يومٍ لي في المدرسةِ الإعدادية، وآخر يوم دراسي في حياتي، هناك حديث يدور حول زواجي القريب، مثيرٌ للسخريةِ حقًا أني لا أعرف حتى اسم ذلك الزوج المستقبلي، أراك قريبًا»

*****

-١٩٩٩/٥/٥-

«عزيزي لا أحد

أصبحتُ خالة، وأختي فاطمة التي تكبرني بعام غدت أم... لا يغمرني الفرح، ولم تنبلج سريرتي حبورًا، أتمنى ألا أكون كفاطمة، أمٌ صغيرة.»

*****

-١٩٩٩/٥/١٠-

«اليوم أخبرتُ أمي بما أضمرتُ داخلي من تمرد، أريد أن أُكمل تعليمي، لا أرغب في الزواج.»

*****

-١٩٩٩/٥/١٢-

«عزيزي لا أحد،

ضربني أبي اليوم، أخبرته أمي برغبتي، علمتُ أن ما فعلت هو قلة تربية، و عصيان و ربما عقوق والدين، عزيزي لا أحد، أنا متعبةٌ حد الموت»

*****

-١٩٩٩/٥/١٥-

«عزيزي لا أحد

أتدري لم أكتب لشخص خيالي مثلك؟

لإن البوح محرم علينا، حتى وإن كان لأنفسنا»

*****

-١٩٩٩/٥/٢٠-

«عزيزي لا أحد

منذُ خمسةِ أيام كانت خطبتي، كنت أود كسر إصبعي حتى لا أرتدي خاتم الخطبة، أبي كان سيكشف الأمر حينها لذا تراجعت، غدا ليلة الحنة، ولا أظنني سألقاك قريبا»

*****

-١٩٩٩/٥/٢٢-

«عزيزي لا أحد

اليوم زفافي، رأيت الشخص الذي سيتزوجني أخيرا، ليت عيني لم تبصره يومًا، إنه عجوز في الأربعين، مخيف، جفلت جوارحي حين رأيته، اسمه متولي، لن أكتب لك ثانية بعد اليوم، سأدثر هذا الدفتر في مكان مبهم، لربما أحتاج لإفراغ ما بجعبتي لك يومًا، أو لربما تُفتح قضيتي المغلقة منذ الأزل، وداعا يا أنيسي»

******

-٢٠١٤/١/٢٠-

«عزيزي لا أحد

رزقني الله بابنة، أسميتها مريم آملةً أن تتجرع من الطهارة القليل، صارت اليوم في الخامسة عشر، زوجي يود أن يزوجها، وأنا لن أسمح له مهما حدث، سأجعلها تهرب اليوم، قد أموت يا لا أحد، لا يهم حقا المهم ألا أدعها تغلق قضية طفولتها بيدها مجبرةً، سأفتحها لها وأدعها تسلك الدرب وحدها، أرجو ألا تفتقد صفحاتك حبرَ قلمي، وداعا بصدقٍ، وإلى الأبد»

******

أطبقت فاطمة دفتر أختها المهترئ وعبراتها أغدقته في حين غرة، تعانق جفناها بتعب مضنٍ، وكوابيس تتعارك في رأسها حول مغبة أختها بعد ما فعلت مع ابنتها، وفي هنيهة قررت قطعَ الشك باليقين، التفتت نحو مريم المستلقية بعيائها على السرير وطفقت تسألها بذعر المستغيث:

«ماذا حل بنبيلة يا مريم؟»

بغشاء من دموع حجب رؤيتها ودون إدراكٍ أجابت الفتاة:

«قتلها أبي أمامي»

هنا صار المبهمُ واضح كشمسٍ أحرقت الجبين، كل الاتصالات على بيت أختها بلا رد، وكل الردود التي أكدت غيابها غير المبرر من منزلها، أصبح جليا كم أن القضايا المغلقة تفتحُ نفسها بمهج الأطهار دوما.

****

طرقاتٌ متسارعة على الباب، وجمع من الجنود وضابط يقودهم في أهبةِ الاستعداد لأي مواجهة مع فاتح الباب، فك متولي قفل الباب، وتعلقت صدمة جلية بمحياه حين أبصرت مقلتاه الضابط القابع أمامه.

«سيد متولي، أنت متهم بقتل زوجتك السيدة نبيلة وتهديد ابنتك بالقتل مقابل قبولها الزواج»

بادر الضابط حديثا في حين التفت أيادي الجنود تلقي بالقبض على ذلك المجرم الذي باءت محاولته فشلا في إغلاق قضية طفلته مريم بدماء زوجته البريئة.

قضية مريم فتحت نفسها بصخب البوح وضجيج النسيان، فُتحت بدماء تجرعتها الأرض، وأزهقت بها مهجة من تمنت أن تكون في موضع فرار ابنتها يوم تزوجت متولي، لكن ألا يمكن لهن فتح قضاياهن الخاصة بهدوء وإلى الأبد....؟!

ولأن قضاياهن دوما مغلقة وجب علينا فتحها...

أفول نجم

بقلم.. شيماء عبد الرزاق /المغرب

لأول مرة منذ أعوام، أحست نجم بأنفاس الصقيع المنعشة تداعب بحنان وجهها الشاحب المعفر بآثار الخيبات. شعورغريب بالحرية تسلل إلى شراييها أمام قبلات الثلج المسود إثر ملامسته شغاف قلبها، شعور منحها قوة لتتسلق العتبات أمامها، وتستعيد زمام حياتها الذي صار على مرمى من يديها الآن؛ لا شيء سينغص أحلامها بعد اليوم، لا أحد سيلوث طهرها بأناملها المسودة، لا شيء سيغتال ما تبقى لها من آمال.

على سقف الكآبة، ارتفعت قامتها الهزيلة باستسلام، ساقاها المرتجفتان تتمايلان بهلع، وهي تحاول أن توازن نفسها على البرزخ الدنيوي الفاصل بين النور والظلمة في أجمل لحظات اتحادهما.

مشت خطوتين مرتبكتين ثم توقفت، المدينة تحتها تبدو بظلالها القاتلة كأنها ترقبها بصمت مستفز هز كيانها. إنه الهدوء الذي يسبق العاصفة. هدوء زكم أنفها بعبير الخوف، وثقل الزمن.

هبت رياح قوية بعثرت الليل في شعرها الفاحم، وأرسلت في أوصالها رعشات برودة، زادت من سكون الظلام الذي يعشش داخلها.

هل تدفء الحياة ما أثلجته السنين؟ هل تبعث الأيام ما اغتالته الوحوش؟ ماتت الأحاسيس والمشاعر، ماتت اللهفة، وجفت الدموع، وذوت الشعلة التي كانت تتقد، لم يعد لنجم نور إلا اسمها، لكنها نجم آيل للأفول، نجم يقف بصعوبة فوق الخط الفاصل بين الموت والحياة على سطح بناية متهالكة، استعدادا ليرتمي في أحضان الأبدية.

لم يبق لها الكثير قبل أن تقدم على الخطوة الكبرى، الدقائق تلتهم الثواني بسرعة جنونية، والشمس التي ينعكس لمعانها في عيني نجم المظلمتين، تمشي بهدوء ساحر نحو مخدعها، موقدة في طريقها شعلة الذكريات، التي تحررت من قيودها الأبدية حاملة معها ماض ينزف عذابا.

لا تزال نجم تذكر اللحظات التي جرفت حياتها نحو حقل الآلام، بعيدا عن السعادة والفرح. في ذلك اليوم عندما اجتازت عتبة باب هذه البناية المهترئة، ومشت بخطى مرتبكة داخل البيت الذي سيخذلها، أدركت بغريزتها الطفولية أن تلك هي بداية غروب الشمس التي لن تر نورها أبدا.

كل شيء في ذلك المنزل العتيق الذي خضب ذاكرتها بلون قرمزي لا يشيخ، كان يتوعدها بحكاية ستحفر أجديتها القاتمة في دمار قلبها، بدءًا من الباب الذي لا يتوقف عن السعال، وانتهاءً بالغرفة التي ستتقاسم أمتارها الخمسة مع الليل الفاحم.

سنوات مرت على تلك الليلة الأولى التي قضتها نجم في حصن الكآبة ذاك، سنوات منذ أن اغتصبت طفولتها بوحشية خلفت آثارا أثخنت الروح قبل الجسد. لم تمنح قط فرصة لتنضج، إذ كان عليها أن تكبر دفعة واحدة، وتشرف بقامتها الهزيلة تلك، على أشغال البيت وتلبية

رغبات السيد والسيدة وإلا فإن بدنها سيصير لوحة حية تتلذذ الأسياط بزخرفتها.

كم مضى من العمر على غياب الفرح من حياتها؟ منذ وفاة أبويها وانتقالها للعيش مع عمها، لم تعرف للحبور طعما. لا يزال ذلك الصباح الذي استيقظت فيه حائرة على سرير المشفى الأبيض، حيا في ذاكرتها. حينها قيل لها أن والديها قضيا نحبهما بسبب مرض ألم بهما، لكن الجراح على جسدها والصراخ الحاد الذي غمر أذنيها، إثر انحراف السيارة، قبل أن يبتلعها الظلام، أخبراها قصة أخرى؛ قصة أكدت صحتها نظرات الممرضات المتعاطفة نحوها، وهي تغادر المشفى بخطوات متعثرة مع عمها، الذي سيتولى مهمة الاعتناء بالطفلة قربه.

أغمضت عينيها بقوة، في محاولة يائسة لطرد الذكريات، لا مزيد من الحزن، لا مزيد من المعاناة، ستندمل الآلام قريبا، ولن تضطر لأن تحضن الحنين، مساءً، لعبة تلهيها عن بكاء الجراح. ولن تستمع لعصافير بطنها تزقزق، ورائحة الطعام تزكم أنفها، بينما هي تلوك الحسرة واليتم، لن يملأ طنين الشتائم أذنيها من جديد، لن يحدث هذا، بعد اليوم.

نظرت إلى اللجة المتلاطمة من البياض أسفلها. خلف ابتسامة الطريق المشعة، يختفي سواد قاس، هو مستقبلها الذي لا ماضي له. لم يعد بإمكانها التراجع. تنفست بعمق، أخذت خطوة واحدة نحو الفراغ ثم هوت كورقة هشة في مجرى الرياح كانت تراقص الحياة على ساحة الأثير. جسدها ذو الستة عشر خريفا يتمايل ببطء في رقصة وداعها الأخيرة للدنيا، قبل أن تتلقفها أحضان الموت لتخلصها من واقعها المرير.

أغمضت عينيها بتراخ وهي تنتظر مصيرها. انتابها إحساس غريب بوقع الحياة داخلها: دقات قلبها المتسارعة، شهقاتها العميقة... كل خلية في جسدها تتشبث بالدنيا، بينما روحها استكانت للموت.

عما قريب، سيحيط بها الظلام قنطرة عبور نحو المجهول، ستتخلص حينها من ركلات عمها، وكدمات زوجته العابسة دوما، وستصبح، لأول مرة منذ دهر، حرة.

تهشم رأس نجم عندما التقى في صرخة مدوية بإسمنت الطريق القاس، انفتحت آهات ذاكرتها، فتسلل الماضي من جراحها أحمر دمويا مكونا بقعة واسعة حول وجهها الملائكي النائم بسكون. غطاها الثلج كفنا أبيض في انتظار قدوم سيارات الإسعاف، وبكتها السماء مرثية حزن غلفت روحها.

لم تدم الجنازة طويلا قبل أن تتلقفها الأيدي بعجل، بينما الزمن فيها توقف. كل محاولة لإسعافها باءت بالفشل. لم يدرك أحد أنها ميتة منذ زمن، أن روحها توفيت يوم نالت حصتها الأولى من التعذيب التي تلتها فيما بعد حصص لا تنتهي.

مأساوية هي الحياة التي سرقت من أصحابها في غمرة الألق والسعادة، سوداوية هي النفس التي دفعت إلى الانتحار دفعا. ملعونون هم الجلادون الذين قادوا بقسوتهم نجم إلى سطح البناية، ودفعتها نظراتهم المشتعلة إلى الانتحار.

للقلوب النقية مرح وطموح يملأ الأجواء، لكن عند اسودادها، تصير رفاهية الموت حلمهم الأكثر واقعية أمام قسوة العالم، فيخبوا نورهم، و يتحولون في غمرة الأسى إلى نجم على وشك الأفول.

نقوش خفية

بقلم.. ليلى خالد الشريف/ مصر

قشّر اللغُط الصادر من حفيدي الوسيم صاحب السن اللبني -كان يحمل توست بيده وحقيبته الزرقاء خلف ظهره غشاء الهدوء الذي كان يغلف عصرية يوم الأحد. انتابني إحساس بأن وقت نشرة الأخبار سينتهي مبكرا. كانت لجلجته عبارة عن ثرثرةٍ أو رجاء وتمني دائمُ الترداد، كالاتي أسمعها الآن:

جدتي أرجوك، أبي مشغول وأنا لا أحب الذهاب مع أمي؛ فهي لا تحب الألعاب.. أرجوك.

أفسده التدلل والانشغال الكثير عنه، لكنه أفضل من غيره لا تستهويه التكنولوجيا، ليس كأحفادي الآخرين مدمن على أشياء إلكترونية... عجبت مني ومنك يا حفيدي... مختلفان في العمر ومع هذا يحيطنا الشعور بالوحدة.

انحنيت بظهري المتألم لأطبع قبلة عميقة على خده؛ هو يستحقها.. لأفاجئ بابتعاده عني وملامح الانزعاج ظهرت عليه، صاح علي قائلا:

ماذا تفعلين يا جدتي! لا تقبليني على وجهي، فأنا أصبحت رجلًا لن تقبله سوى زوجته.

همهمت للحظة من الزمن بينما أنظر إليه.. وأنا من اعتقدت أنه أكثر أحفادي تأدبا... فعلًا، ما المشاغب سوى ابن لمشاغب. فكريم آخر النفحات الإلهية، آخر من أنجبته، وسهرت الليالي من أجله، ليتزوج بليدة أرخت عليه الستارة وأفسدت من ربيته.

أتساءل أين كان عقلي عندما وافقت عليها؟ لكن ما فات قد مات... لا فائدة من الملامة الآن.. الآن يوجد صغيرهما أمامي يتفوه بحديث أكبر من عمره. سألته و أنا أعلم إجابته:

من علمك قولك هذا؟ ألست صغيرا على التفكير بالزواج يا فتى!

أجابني ببراءة الأطفال، شجاعة الفرسان:

لستُ صغيرًا! والزواج لم يكن يوما له عمرا، ألم تتزوجي يا جدتي وأنت صغيرة؟

تأملت ملامحه وبالأخص عيناه التي أخذت كثيرا من"أطلس" ثم انتقلت إلى خشمه الصغير الذي تصبح مقدمته حمراء عندما ينفعل، تنهدت مستسلمة له:

تذكرني يا نور بجدك رحمه الله.

سألني بينما حاجبيه معقودين: لِمَ تقولين رحمه الله؟ هل مات جدي؟ بابا قال بأنه سافر وسيعود قريبا!

- الرحمة تجوز على الميت والحي يا نور.

أبحرتُ بنظري إلى ملامحه التي أخذت كثيرًا من أطلس، فتذكرتُ بدايتنا وكيف كانت حياتنا جميلة، ممتلئة بالعاطفة الجياشة... بل شقية ومهلكة للروح والجسد.

لو يعلم نور بأن جده قد مات داخل قلبي قبل أن يرى هو الدنيا بعينيه الصغيرة، وأنه قد فرق القدر من طرقنا!... سيعلم يوما ما؛ فالزمن مخبرٌ محترف يقتنص القلوب فيلسعها.

ليس الزمن وحده القناص فنور بدوره تعلم كيف يقتنص فرصته، سألني مرة أخرى كان سؤاله أقرب للرجاء: ألن نذهب يا جدتي؟

لا والذي بيده نفسي لن يخدعني وجهك يا نور البريء الممتلئ ذي الوجنةِ الورديةِ.... تمالكي نفسك يا رواسي، سينتهي بكِ الحال ترضخين لدلعه المسخ وطلباته التي لن تنتهي، لا تحادثي قلبك يا رواسي فجسدك أصبح كبيرا لا يستحمل الإرهاق... هو أيضا لن يحتمل الوحدة، لا بد أن يملأها أحدهم... أمري لله: أين تريد أن تذهب يا نور؟

- الكرنفال.

لم؟.. إنه ممل ولا يوجد به ألعابٌ كثيرة!

- لأنك أخذتي سامي وأسماء إليه، بينما أنا فالبطة السوداء!
- يا حفيدي الأجمل، أنت وقتها لم تكن متواجدًا... لا تحزن فأنا لا أملك نورا غيرك! أسرع وأحضر لي عكازي... بسُرعة قبل أن يتغير رأي.

يا لعجزي.. أصبحت شيخا أرى الشخص اثنين، وصار سندي قطعة من شجرة عامرة.

يا لعجزي؟ ما زلت في صحتي وعقلي، ربما بعض إرهاق وضيق تنفس وضرب إبر أنسولين في جسدي وحبوب صفراء وحمراء لا أعلم كيف أتهجأ اسمها... لكني ما زلت على قيد الحياة وأفكر بجدية بتغير غرفتي مع غرفة حسان؛ فهذه في الدور الثاني. ثم أتكر كيف أن ابني البكر ليس حسن الطباع على الإطلاق.. تتراجع الفكرة بل تضمحل!

رحماك يا الله، في كل مرةٍ مع كل خطوة أخطوها على السلالم تصدر ركبي صريرًا لتذكرني بعمري فأجاريها بإطلاق تنهيدات وعبارات مثل: عناء فوق مشقة!

- أمي! إلى أين؟

نظرت إلى مصدر السؤال بينما شردت ضحكة من بين شفاهي الذابلة، ذكرني بمثل شعبي يقول: ذكرت القط أتاك ينط.

- سآخذ نور إلى الكرنفال.

نظر إليَّ وكأنه يكتم ضحكته، سألني بنبرة وكأنه يسخر مني.. من والدته:

أتقصدين الكرنفال! عجيب ظننته قد انتهى!

على أي حال، أمي ألم نتفق على مقابلة ليمونة؟

جل ما امتلأت به أفكاري.. هل قال لتوه ليمونة؟ من ليمونة!. إن سألته سيسخر مني وكأني لست من أنجبه لهذه الدنيا، قائلًا: هل أصابك الخرف!.. وإن لم أجبه سيردد طيلة اليوم بمزاج عكر: لقد تتجاهليني وأنا من يريد راحتك، وأنا وأنا!

- أمي! يا تراه أصابك الزهايمر؟

وها هي نبرة القط الساخرة التي وضعتُ لها حسبانًا ونظراته المستفزة، مع كل يوم يقتربون به إلى الاستقلال التام يقل احترامهم لي واحتمائهم تحت جناحي.

أنا لستُ مصابة به لكن حين أراك يرتفعُ الكولسترول وضغط الدم والسكر.

- كم هذا مُطمئِن للأعصاب. ماما رواسي كما هي لم يتغير حالها.

أمي، ليمونة هي الخادمة الجديدة التي اتفقنا على استخدامها...

- من أنت؟ من أنا؟؟ لطفك يا لطيف، أظنني أصبت بالزهايمر. هيا يا نور أسرع..

فلتحدث نفسك كما تشاء، لن أقبل قطعًا على ما تقترحوه أنت وأخوتك بالخفاء (فلنجلب لها خادمة لكي نرتاح) وأعيش أنا ما تبقى لي من أيام سجينة للوحدة.

هذا بيتي الذي أهدرتُ عمري من أجل إعماره، وحاربت أهلي كي أسكن به مع أطلس متغاضية عن فقره.

فقر؟ هل بعد عمرٍ سأشتكي وأسخط؟ ألم يرزقنا الله أكثر مما حلمنا به؟ ربما ليس كلُ شيء أنا حلمتُ به قد تحقق ولكن.. بالحمد تدوم النعم، والحمد لله حياتي أفضل من غيري.

مثلا: تحية ابنة الخباز.. يا إلهي، كم كانت تلك الأيام جميلة عندما كنا نلعب في الحارة، كانت الأنفس طيبة لا تحقد ولا تحسد.

الجيران أقرب أن يكونوا أسرة.. ليس كاليوم، لا تعرف حتى كيف يبدو جارك!

يا تراه ماذا فعل بها الزمن؟ هل تحررت من قيود والدها..؟ أم أُستعبدت لرجلٍ آخر تحت مسمى الزواج؟، أما زالت تناطح مثلي كالثور العنيد؟ أم تحت الأرض ترتجي من أبنائها الدعاء والصدقة؟

صرخة نور بالكرنفال كانت كفيلة لإيقاف تدفق الذكريات العابثة، فتبسمت على حالي... كنت وما زلت حالمة.

أحمدك يا لله بأني أخذت محفظتي معي؛ فحدقتا نورٌ الكهرمانية تشتعل من الحماس! سألته أي الألعاب يود بتجربتها فهز رأسه نافيا جميع الخيارات ثم قال:

السيرك، خياري الأول و الوحيد.

السيرك، عرض صنع لإهدار المال ففي البيت تستطيع أن ترى حيوانات عجيبة ترقص وتزمجر وأحيانًا تؤدي حيلًا خطيرة.

كتلك المرة التي زارتني فيها نجمية ابنتي وتوأمها.. لم يفتأ سامي عن القفز على الأريكة و لم تتقاعس أسماء عن اللاحق به متناسية الفارق

بينهما، ليضطرب توازنها وينتهى العرض الشنيع برضا على كوع وخدشٍ على شفة وذراع كرسيّ المفضل مخلوع.

- جدتي! أهذا كله تفكرين؟ أصبحت تفكرين كثيرا... هذا ممل!

رحماك يا الله من عذاب هذا الجيل، وتعريه من الأخلاق وانعتاقه من الاحترام، أشرت بعكازي على كشك التذاكر قائلة:

تعال نشتري التذاكِر... نور لا تجري مبتعدا عني!

أصبح كالبرق فور سماعه ما يحبه، لطفك يا الله، قد نسيتُ متى كانت اللحظة التي اشتققت فيها عن الدنيا وتشبثُ بجدار الزمن بينما الجميع يركض مبتعدا عني، يركض يشق طريقه.

توجهنا إلى طابور التذاكر وبعد مرور ربع ساعة من الوقوف، والحمد لله أننا تحركنا وإلا كانت قدمي تهشمت أكثر مما هي عليه.

وعلى غفلةٍ مني باغتني ضوء ساطع، جعلني عمياء لدقيقة كاملة.

أفاقت جفوني لتشهد عيني الضعيفة المتألمة بائع التذاكر يحرك شفاه الداكنة أثر التدخين قائلًا:

- آسف يا جدتي، لا يسمح لدخول من هم كبار السن.

انعقد لساني وسهيت عن الوجود.. لقد مرت فترة طويلة لم أسمع هذا التحييز، هذه العنصرية، والآن أسمعه من فتى لم يتعدى الثلاثين يرتدي قرطًا في أذنيه! لِمَ ممنوع؟ هو مجرد عرض لحيوانات تقفز داخل حلقات نارية؟ عرض كثيرا كنا نحضره ونحن شباب.

- لستُ كبيرة إلى ذاك الحد يا صغيري.

ابتسم البائع ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه الصفراء مأكولة الأطراف، لمعت عيناه بالخباثة والمكر، قال لي بصوت لا يسمعه سواي:

هناك يا جدة بُقعة سحيقة من نفس كل إنسان، ثمّة بها مرآة، ربما تقْبع قرب منطقة اللاوعي.. ربما لا يمكنكِ أن تقول أنها مجرّد مرآة تقع هنالك فهي تكشف دواخل ما لا تراه الحدقة الخارجية. أتعلمين يا كهل ماذا أرى الآن! أرى بها طفيلية تكافح وتعيش على نظام رياضي، هرمة ممتلئة بالأمراض والأحزان.

هنا تخدر سمعي وانفصلت عني أحاسيسي، ضرب السفيه الذي أصبح في رمشة عين.. ابن خلدون بكلامٍ لا يستحق السمع أضعف أوتاري.

ربما قد طعنت في السن في نظرك، وأنت وأمثالك عديمو التربية لا أهتم بكم.. أضف أن ساقاي أصبحت لا تحملاني فاضطرت إلى الاستناد على عكاز لكن كبريائي لم يضعف يوما كي اضطر إلى الاستماع لكلامك الماسخ!

لم أدرك كيف مر عليّ الوقت أثناء لحظة حديثه البغيض، أثناء وقوفي محطمة الكيان.... لم تكن تلك لحظة على الإطلاق، كنت، كنت وكأني في عالم آخر، بل هو بحد ذاته عالمي لكن الزمن حولي.. مختلف.

كنت الوحيدة التي تسندها عصاها! كنت الوحيدة التي أمتلك خصل شعراء بيضاء ولولا حجابي السماوي لظهرت للعيان، كنتُ الوحيدة التي يُنظر إليها بنظرة شفقة..

- خالة رواسي.

التفت إلى قائلة العبارة وكأني دمية لعب بها مالكها بعنف.. فتحطمت. كانت شابة ذات طلة مريحة للقلب، شابة تعرفني ولا أعرفها.. فسألتها عن هويتها، لتجيب عليّ:

هذه أنا هيام.. صديقة ابنتك قمرية، كيف حالك يا خالة؟! وكيف حال قمر؟ مضت سنوات على آخر لقائي بها.

يا سبحان من خلق، بالرغم أن المكان مُحيك بظلالٍ سوداء لكن ملامحها تجلّت لرؤيتي بشكل جميل.

لقد تغيرت كثيرًا.. كانت قزمة مزعجة وبعض الشيء قبيحة والآن هي أم يقف بجانبها طفلها، أصبحت جميلة.

- الحمد لله بخير يا ابنتي، وأنتِ؟
- الحمد لله بأتم صحة... أهذا حفيدك المختبئ خلفك؟

ابتسمتُ وأومأت برأسي.. ثم نظرتُ إليه وأنا أعرف به، هو خجل مع الغرباء ولكن سرعان ما يتحول هذا الخجل الجميل إلى جرأة وقليلُ من الوقاحة.

المسكين، تحولت سعادته إلى اكتئاب..

- يا خالة.. سأدخل السيرك مع زين، ما رأيكِ أن ينضم لنا نور؟ هناك تذكرة إضافية على أي حال.

نظرتُ إلى نور الذي كان لتوه سينفجر من البكاء والآن عادت الشرارة إلى عينيه اللامعة، فوافقت على اقتراحها الذي عرضته بشكل مهذب، هي بالتأكيد رأتني وأنا أهزئ من قبل صعلوك..

جلستُ -بعدما أخبرت نورا بأن يلتزم الأدب معهم- على كرسيٍ قواعده بلون الزيتونِ وخشبهُ بلون أوراق الخيزران.. نظرتُ إلى السماء الداكنة المزبرجة بأضواء المهرجان، ثم لمحتُ التربيع.. فاستذكرت آية الرحمن (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)

منازل القمر تذكرني دائمًا بمراحل عمر الإنسان، حيث الابتداء بالضعف حتى إذا ما انتصف اكتمل وأصبح قويًا، رُدّ تدرجيًا إلى سابق عهده ضعيفًا ثم يأفل.. أحطنا برحمتك يا الله... فالدهر لا يرحم؛ يأكل ما تبقي من عمري.

وبالرغم أن حال القمر كحال البشر في البدء والانتهاء، لكنه ليس كحال البشر في طرح الطيب والضياء، حسبي الله على البائع السفيه صاحب القرط.

فتحتُ حقيبتي أبحث عن منديل أزيل به ندى جفني، فلمستُ كتاب! هل دسه الأطفال في حقيبتي؟ كم مرة أخبرهم بألا يلعبوا بأغراضي!

حررته بصعوبة من أنياب الحقيبة النهمة.. لأجده مذكرتي القديمة.. متى كانت أخر مرة رأيته؟، لا أتذكر جيدًا.

بدأت عملية النبش عن نظارة القراءة، عليّ أن أغير هذه النهمة فهي تطمر الأشياء بل تبتلعها!

يا رحماك يا الله، إنها أقدم مما توقعت..! ورقها متهالك للغاية! أكانت آخر مرة أنقش بها قبل ولادة نور، قبل سبع سنين عجاف!

قلبتُ المذكرة سريعًا، ثم استفتحتُ بمقدمة المذكرة.

قرأت سرًا ما كُتب فيها:

"غالبًا نحن لا ننسى، بل نتناسى.

فالذكريات لا تُمحى.. بعضها يُحفظ في أرشيف الذاكرة ومع مرور الأيام تتعصرن، وبعضها يتحول إلى نقوش خفية داخل الذاكرة. ويعتمد تحفيز الذكرى على حبر النقش، كلما ثقل.. كلما بقي وكان تحفيزه أسرع."

ويعتمد تحفيز الذكرى على حبر النقش، كلما ثقل، كلما بقي، لسانُ بليغ!، لربما كان له وقعٌ في النفس آنذاك!

أعدتُ الكَرَّة وقلبت أوراقها العديدة، أهي مذكرة يوميات أم موسوعة؟. كيف لم أنتبه على ثقلها؟ هل إدراكي في مسابقة اضمحلال مع أعضائي!

بعد تصفحٍ عجول فضولي لمعرفة المكنون عثرتُ على الكثير من الورق المجعدِ والقليل جدًا فارغ.

اخترت ورقة عشوائية من الكتاب، كانت بالحبر الأزرق، فداهم ذكرياتي ذكرى كانت مطوية في ثنايا الفكر.. أني خصصت لبعض الأحداث ألوان مميزة..

نظفت حلقي وبدأت بالقراءة الصامتة:

"الأثنين١٠ فبراير ٢٠٠٣

هذا اليوم له عدة عصور. عصر قديم وعصر حديث وعصر الحقيقة وعصر الوهم عصر الطفولة وعصر الألم...

والآن، فقط الآن، التحم داخلي كل عصر منهم وخرج مني زوبعة بكاء على ما فقدناه، على ما فقدته اليوم مقابل حياة كاملة، والدتي."

أغشاني الهدوء فسمعتُ داخل رأسي صمت سَفَّاكٍ وهدوءٍ واجمٍ، كأني أخشى اندثار هذه الأحاسيس: إذا.. كان اللون الأزرق لوالدتي.

قلبت الصفحات هذه المرة بترتيب التواريخ أبحث عن صفحات زرقاء..

"الثالث والعشرون أغسطس ٢٠٠٤

الأمر أشبه بأن تقف طويلًا دون أن تصل دون أن تسقط حتّى، بأن تتلوّى ألمًا وبُكاءً دون أن يُعيركَ الذي تتلوّى من أجلهِ أي اهتمام، وكيف سيهتم وهو تحت التراب!"

"السابع من أبريل ٢٠٠٥

آسفة لأني أصبحت لا أنقش كثيرًا..

وجدتُ الصعوبة في النقش فأصابعي أصبحت ثقيلة عن قبل وأحداث أيامي المكتظة تخف وتضيع.

لكني سأنقش بعضًا من جمل (كان) وأحاديث خفية، لعلي أرتاح من ثقلها.

والدتي الطيبة كنت أقول عنها دائما" لو لم تدخل الجنة فمن سيدخلها؟

كانت يداها وكفاها هي كفوف الراحة."

كانت لا تفارق سجادة الصلاة بشكل غريب..

كانت تضحي من أجل والدي بالغالي والنفيس ولا تبخل علينا بعاطفتها وقلقها أثناء مرضنا.

وكيف كانت لا تنام الليل كي ترعانا وتروي لنا أقصوصة.

تذكرت بالأمس عند دعائي، يومًا من فترة طفولتي... سمعتها بالصدفة وهي تدعو بصوت مرتفع بينما الكل نائم، سمعتها وهي تدعي لجدي وجدتي بالرحمة والغفران، وتدعي لبقية أفراد الأسرة أن لا يصيبهم المكروه أبدا..

دعت حتى البكاء بينما كنتُ أتلصص عليها من خلف باب الغرفة. تذكرتُ اليوم بعد صلاتي للسنة: أني سألتها في إحدى المرات وقلت: ماما، كم ركعة تصلينها في اليوم؟

أجابت علي: ليس بالعدد يا وتيني. المهم هو حضور القلب، أحبِ ربكِ ولن يتركِكِ.

كانت هذه الجملة التي جعلتني أصلي كثيرًا، أصلي في كل مكان ولأي سبب.. أصلي لله وأصلي للحب الذي كانت تغدقني به.. اشتقتُ لكِ يا أمي."

يا لسعادتك، قد حفظ أحفادك الأفعال لعبارتك (أحب ربكِ ولن يتركك) ظهرًا عن قلب، عبارتك التي أنارت لي دربي.. عبارتك التي أنستنيها أشغال الدنيا ويصونها جسدي..

قالها ذات مرة كريم عن لسان قائل: لولا النسيان لمات الإنسان لكثرة ما يعرف، لكني ميتةٌ بذاكرةٍ هش مع جرحٍ وسط أضلعي.. كنتُ أظن أن اشتياقي وندمي سيقل كل يوم أقترب به للموت.. لكن خاب الظن، وظني بالله جميل.

أكملتُ القراءة و لا أعلم ماذا دفعني لأكمل.. أهو الفضول عن كيف كنتُ أفكر وأنقش، أم لأني لا أريد أن أفسح المجال لملاحظة عقلي وحدقتي غياب الأجزاء القاسية في إطار الذكريات، وتوقفه عند التفكير والتأمل وربما البكاء تحت تأثير: يا ويحيكِ، كنتِ عاقة.

"الثالث من مارس ٢٠٠٨

ماتت أمي وأنا لم أفكر بخدمتها..

دبلت وردتي وأنا ما زلت انتظر عبقها، كنت أريها ما اشتريت، وما أعطيت، ولم أسألها ماذا تحتاج، أو حتى أهديت، عودتني أمي على الأخذ حتى نسيتُ العطاء، وتحول بي الحال إلى وحش لم يرزق حتى برضاها، ماتت أمي وحيدة في غرفتها، وسط أربع جدران مخيفة، لم أفكر بزيارتها أو حتى أن أرفع السماعة للاطمئنان عليها، ماتت أمي

وحيدة، ماتت أمي ولم أعطها، ماتت أمي ولم أخدمها، ماتت أمي في يوم عرفة حيث الكل مشغولٌ به، حتى لا ترهقني، ماتت أمي وأغراضها مرتبة ونظيفة.. حتى لا تتعبني، ليتها تعود.. لأخدمها، ليتها تعود.. لأتحدث معها، ليتها تعود.. لأجلس بجانبها فقط، ليتها...ليتها"

مررت بخواطر عابرة أو كما ظننتها، لكن ما كان عابرًا هو: دمعي الذي استعصى البقاء في محجره.. والشهقة التي توقفت في حنجرتي..

فتحتُ الشنطة أبحث مجددًا عن المناديل. حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت، إن لم أغير هذه الحقيبة الفظيعةِ النهمةِ لن أكون رواسي التي أعرفها.

وبعد دقيقة كاملة من البحث عنها وجدتها داخل المعدة الخارجية.!!

صدق حبيب الله، كل أمر المؤمن خير..! انشغلت بالبحث ومنع نفسي عن السباب فتحجر الدمع! فتحت صفحة جديدة كالطفل المتلهفِ، وأكملت القراءة:

"الرابع عشر من سبتمبر ٢٠٠٨

سأنقش اليوم أصعب شعور راودني.. الندم.

الندم.. لأني أعطيت كل ما أملك من روح وحياة لأطلس.

والندم الأعظم.. أني لا أستطيع العودة إلى الوراء وإصلاح ما اقترفته بحق والدتي.

لن أنسى هذا الشعور يومًا.. لأني أستحق أن أعيش بندمي.

حاولت الانشغال عنه ولكن لا فائدة حتى إذا أشغلتُ نفسي بعمل ما.. أفكر بنفس الموضوع، أتذكر كل الأحداث، أتذكر كل شيء قلتهُ وكل شيء فعلتهُ.

لم أكن أفكر للحظة أنني سأندم عليه، وبدلًا أن يقل الندم يومًا بعد يوم.. أراه في تزايد؛ لأنني كل يوم أتذكر شيئًا جديدًا لم أنتبه أنه خطأ.. وهكذا فتكثر عدد الأشياء التي أندم عليها..

أصبحت أحتقر نفسي وألومها دائما على منية والدتها."

لم أُقلب الصفحة، فقد كان مكتوب بمقابلها:

"الثاني وعشرون من سبتمبر ٢٠٠٨

كان كريم اليوم يشاهد التلفاز.. ثم دارت معركة بيني وبين كريم اليوم.. من أجل (من سيمسك بجهاز التحكم).. هذا الفتى يتشرب كل يوم من عناد أطلس..

انتصرت رغم أنني سُقيتُ بمطر كلماته، لا بأس.. فأنا صاحبة الكلمة العظمى هنا.

غيرت قناة الأطفال إلى غيرها.. كان برنامج لتفسير آيات القرآن.

قرأ الشيخ الآية وفسرها: (لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ)

أي، كي لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا، فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم.

جعل تفسيره من تفكيري المتشبث بالماضي ومشاعر الندم التي تثقل في قلبي.. تقل بالتدريج..

ثم تفكرت وتدبرت في أيامٍ مضت..

لم أشاهد أمي تبكي يومًا، كانت قوية وعزيزة دائمًا،

كانت تبتسم لنا وتهتم بنا بالرغم من إصابتها بالخبيث... لم لا تكون أمي قدوتي؟"

بحثتُ عن عباراتٍ زرقاء أخرى.. كانت هذه الأخيرة!

فاستقريتُ على ورقةٍ فارغة وبينما أمنع سيلان أنفي من مبارزة دمع عيني إذ سطرتُ بإصبعي:

"اليوم الأحد.. لا أتذكر أي شهرٍ نحن

اعتذر لأني أستخدم الشفاف من الحبر ولكن هذا ما أملكه الآن

بعد رحيلك يا والدتي.. فعلًا، كنتِ أقرب مما كنتِ

كل شيء أصبح يذكرني بكِ، بل كل شيء عبارة عنك.

تركتِ رائحتك بين ملابسي، تركتي وصاياكِ ترعاني.

تركتِ أيامك في يومي وذكريات لا تنتهي.

تركتِ شيء في كل شيء بالرغم أنك لم تكوني معي.

ما زلت أحكي عنكِ لكل مرزوق من أبناء أطلس.

أحيانًا.. أرى طيفكِ فيما تبقى لي من أيام.

شهريًا.. أزور طفليك بعدما تشتتوا بكل مكان.

غالبًا ما أتذكر عقوقي لك عندما أتعب وأخذ الدواء.

نادرًا ما أستمع إلى أغانيك المفضلة ومنهم أم كلثوم!

دائمًا ما أتذكر وقفتك ضد الجميع ورفضك بأن أصبح أُمية عند قراءتي للقرآن.

ما زلت أذكرك وكثيرًا في دعائي وأنا مؤمنة بأنك في روضة من رياض الجنة

فمن سيتحمل ما كنتِ تعيشيه؟ فالله، إن كان لغيرك فهو لن يتحمل.

أتعلمين؟ أني وجدت دربي قد انقطع به الأمل بعدما كانت مسيرة الحياة لا تكتمل إلا بكِ، فرزقني الله أشخاص حولي أرى في سيماهم بارقة أملي.

كنتِ دائما تلقبينني وتيني.. والآن لقبي هو جدتي..

والآن.. الزمن ينقشني لأدخل تاريخ النسيان.

أسأل الله أن يجمعني بكِ في الفردوس."

كم هو قوي ومرهق أن يقف البكاء في داخلي ويُخفِت من صوته، بالمقابل كم هو قوي نزيفه الطويل الذي كوّن له مجرى بأنفي..

يا ترى هل سيذكرني أحد عندما يصبح اسمي ورقة خريف سقطت من دهرٍ؟ أم سيسوق لي المولى من سيدعي لي ويتصدق!

ثمة ما يضايقني! ثمة عينٌ تراقبني..! أشعر بحرارة نفس مخلوق تقترب مني.

استدرتُ يميني فرأيتُ شابة أسرتني بعينيها الخضراوين اللامعتين.!

كانت ترتدي عباءة رمادية اللون من المشجب بوشاحٍ عميق.

تابعتها وهي تخطو وتخطو وبخفة ورشاقة واضحتين جلست بجانبي فوق الكرسي الزيتوني، لم تكن تضع أي مساحيق ومع هذا كانت كالبدر في ضيائه.

أفاقني من سرحاني فيها وزحمة الأفكار هزة الكرسي الناتجة من انتصاب ظهرها بظهر الكرسي، فأعدتُ نظري إلى موسوعتي.

وعلى حين غرةٍ مني ابتسمت ثم خرج سؤال من ثغرها المطلي بلون الخربز:

لِمَ كسرتِ قلبكِ؟

عُقد حاجبي نتيجة رمقي لها بنظرة تعجب سألتها عن قصدها. فأكملت حديثها:

أتعلمين يا جدتي نحن كالزجاج، الحزن والبكاء يكسر قلوبنا. أليس لديكِ أبناء؟

- بلى وأحفادٌ أيضًا.

- عائلتكِ تحتاجك ولكن بقلبٍ سليم.

تابعت حديثها وأنا كالبكماء من جرّاء صاعقة لم تكن ملحوظة:

الحياة: جميلة تحتاج منا القوة، والصبر، أبناؤنا: يحتاجون حناننا، ومتابعتنا، أزواجنا: يحتاجون حبنا، ووقوفنا معهم.

أما أحبابنا الذين غادرونا: فلهم منا الدعاء، والحديث عنهم وعن ذكرياتنا معهم..

هكذا كانت جدتي توصيني قبل أن تنتقل إلى الرفيق الأعلى.

بالرغم أن ابتسامتها كانت أخاذة لكن عيناها حزينة.. حزينة للغاية...

هل أجاريها بالحديث؟ لعلها تريد من يستمع إليها.! أم هي خطة مُحكمة من ممثلة بارعة لتسرق عجوز مثلي.! يا لها من فتاة سيئة!

- ابنتي، لا يخدعنك مظهر هذه الحقيبة كما خُدعت، والذي بيده نفسي إنها فارغة.

ظلت ترمقني بعينين غائبتين عن كل شيء، لا تنطقان بشيء ثم انفجرت ضاحكة، هل قلتُ شيئًا مضحكًا دون أن أشعر!

وبعد أن هدأت ضحكتها رويدًا.. رويدًا.. مسحت الدمع العالق في رمشها وتحدثت:

- لمحتك بالصدفة في طابور التذاكر، استمعت بالصدفة إلى حديثك مع إحداهن، وبالصدفة أيضًا رأيتك تشهقين.. فقررت أن أجعل الصدفة قدر. وإجابةً على سؤالك.. لا، لن أسرقكِ.

همهمت قليلا وأنا أقذفها بنظرات حادة، إذًا... تسلية نفس وإضاعة الوقت، نزعتُ النظارة وقلت دون أن أنظر إليها:

صُدفك أعجب من الأفلام يا ابنتي! آسفة، لم أقصد أن أقلل من احترامي لك.. لكنكِ تشبهين جدتي، جميلة الروح وخفيفة الظل.. أنا حقًا آسفة إن كنتُ ضايقتك.

بعد مضي دقيقة أو اثنان... سألتها دون تفكير بطرية عفوية عن اسمها، مضت عدة ثواني وما زال سؤالي يسبح في الهواء، رفعتُ حاجبي متعجبة ثم بصوت مرتفع:

سبحان الله وبحمده.

وأخيرًا خرجت الفتاة من شرودها المفاجئ، ابتسمت ابتسامة لا حياة فيها وبتمتمة أجابت: رجاء.

لوهلةٍ شعرتُ أني ربطتُ بين 'رجاء لا تسألي' و 'رجاء هو اسمي' فبادرتها بالسؤال لتحطم الارتباط.

ابتسمت برقة وأجابت: إنه اسمي. لا تأخذِ وقاحتي في السؤال.. لكن ماذا كنتِ تقرأين؟

- اسمك جميل يا رجاء..

كنتُ أقرأ مذكرات.. بل نقوش غير مكتملة، مفتتة ومنها الوهم أيضًا.

- هل أستطيع أن ألقي نظرة عليها، أم بسؤالي أتعدى على الخصوصية؟

ناولتها المذكرة دون أن أناقشها أو حتى أتردد. فتحت المقدمة... ثم أغمضَت عيناها اليسرى بينما أبقت الأخرى مفتوحة على وِسعِها.. تحاول أن تقرأ ما كتبتُ؛ ثم رمقتني بنظرة محتواها (أهذه شعوذة!).

لم يستغرق الأمر منها دقائق حتى استطاعت التمييز بين الحروف؛ وهذا دليل على أن مقاومة والدتي للتقاليد وإن المرأة لها حق التعلم كالرجل لهم لم يذهب هباءً منثورا.

رفعتُ لها حاجبي الأيسر وسحبت شفتي إلى الجانب الأيمن.. يا لها من نبيهة فقد أدركت المغزى من حركتي التي أدرت بها الافتخار!

- لا تحاولي يا جدة.. فالخط حقًا سيء.

قرأت بعجالة ثم أبدت نظرة ليست ساخرة.. بل أعمق من هذا؛ كالطفل عندما يشك بمصداقية حديثك عن إفادة الخضار له.

- جدتي.. أهذا نقشك الخاص؟

نعم، ناديني خالة رواسي.

- خالة رواسي.. عندما أصبح رمادًا هل سيتذكر الناس اسمي وأفعالي؟

لا تومِئ فهذه كذبة.. الإنسان أُخذ من النسيان، ولم يرزقنا الله هذه النعمة عبثا!

لم تنتظر مني حرفًا، فهي تعلم مراد حديثها قبل تحريره من حنجرتها.

توقفَت عند صفحة بالحبر الأخضر.. أنا أتذكر لمن هذا اللون الكريه،

استأذنتني بهزة من رأسها ورفع حاجبيها لأعطيها الإذن بإيماء متكررة سريعة.

"ما زلت لم آلف هذا المكان وفي كل مرة أحاول ألا أقارن.. أفشل.

ما زلت أحاول أن أثبت لعائلته أني لستُ الفاعل.. لكن أفشل.

ما زلت أحاول بالاحتفاظ بآخر ذرة من كبريائي وثقتي.. لكني فشلت.

الشيء الوحيد الذي لم أفشل بالاحتفاظ به هو: بقائي على قيد الحياة لأجل أطفالي."

ألصقت الصفحة بوجهها، نظرت بحدة.. ثم انتقلت بين الصفحات بحركاتٍ عنيفة، أظنها طوت بعض الصفحات... ثم قذفتني بسؤالها: خالة. لِمَ الصفحات التي كُتبت بالأخضر لا تاريخ لها؟

- ألهذا كنتِ كمجنونٍ يبحث عن ضالته؟ دون سبب.. هو فقط لا يستحق أن أذكره في تاريخي.
- لم؟
- السبعون عذرًا قد فرغوا لدي.
- زوجك؟

- كان.

ابتسمت وكأنها تخبرني لعله خير..! ثم تابعت القراءة ويبدو أنها استهدفت اليابس من العشبِ؛ الكريه من الألوان.

"لو أخبرتكِ أن هذا الأمر لن يجلب لنا سوى الألم لو حذرتكِ أن النار ستحرقكِ؟

هل كنتِ ستستمرين في الأمر؟ هل كنتِ ستسمحين لنفسك بفعلتها؟

هل كنت ستدعيني أرشدك وأنتِ عمياء في الظلام، في الصمت.. حين لا يكون أحد بجانبكِ؟

وعندما أجبته.. بأني لا أستطيع أن أمنح الثقة، هجرني.

لم يعطني العذر كما أعطيته!

هل أرسل له عذري؟. هل أرسل له: أن روحه في غُربة، والفِكر في شُرود، والقلب أعْياه غيري. أما جسدي أضناه المرضُ."

كانت تقرأ بابتسامة واسعة، ثم خُسفت تمامًا تحت رماد الحزن..

كانت تقرأ بنبرة مرتفعة، ثم اهتزت وانخفضت وصولًا للقراءة الصامتة.

لم تُحرك ساكنًا لدقائق ثم تمتمت وهي تقلب الصفحات:

يا لحزنك، لا خلاق لكِ معه.

أليست صغيرة على الحزن؟ لِمَ لا تمرح كالأخريات!؟ فشبابها فان.

ألم تعيشيه كما ينبغي ضاع منها؛ أين القهقهة التي ترج الأرض رجا؟، التصرفات الصبيانية والجرأة المحدودة، الوقوع في الخطأ مرارًا دون العدول عنه!. تأكدتُ الآن أن شبابي كان كما ينبغي.. حار وحيوي.

أصابني سهم الفضول عن رفيق لليلتها؛ أهو العائلة أم زوجٌ أو حبيب!؛ وعن سبب جلوسها بدلًا من اللهو؟؛ فسألت وأجابت دون أن تكلف نفسها بالنظر إلي:

- ظللت أؤمن أني بخير وأن ضوء الغد سيمحي رعب الأمس، حتى وجدتني مستيقظة في الثالثة فجرًا أفكِّر في كُل شيء وفي لا شيء في الوقت نَفسه؛ اكتشفتُ أن الضوء فقط ضوء! وأني أعيش في سجن روحي.. قبل أن يكون سجنًا خارجيا. اكتشفت بعد سنة من استعمار المرض؛ والموت باليوم ألف مرة أن العافية أغلقت عينيها عني. فقررت أن أرفه عن نفسي قبل أن يفتحوا صدري بأن أزور ملك الغابة كي أضحك عليه وأخبره بملأ الفم: أنا أفضل منك يا عديم الحيلة.. تفكير طفولي؛ أعلم.

وفي طريقي إلى هنا، ولن أخبرك كيف تسللتُ من المشفى، رحتُ أسترقُ النظر إلى السماء المنبسطة أمامي، ما زالت كما عهدتُها زرقاء عالية إلا أنها لم تكن صافية، فالغيم الرمادي تسلل إلى كبِدها فكساها تشوهًا.

ابتسمتُ...لن أكذب عليك، عبستُ وأنا أتذكر صورتي.. كيف وقفتُ أمام المرآة -قبل سرقة العباءة من إحداهن- أرتدي أسلاكًا وتلطخني بقع

الموتِ، لكنَّني ـوقبل أن يطولَ وقوفيـ حدّقت في تلك المريضة التي تطلّ عليَّ من المرآة.

إنها هي، نعم.

أعرفها جيدًا، أعرف أنها كانت تحب ورق العنب الحامض من صنع والدتها، وأعرف أيضًا أنها كانت تحب الحياة وجنونها.. وأعرف أيضًا.. أن زيارتها للأسد ما هي إلا غطاء لتمردها وتوديع لحياتها.

صمتت قليلًا وهي تغالب بكاءها.. ثم ضبطت أنفاسها للحديث مجددًا:

وأعرف أنها الآن تعلم بأن الله لم يجعل للموت زمنًا، لم يجعل له عمرًا، مكانًا وسببًا.. ليعيشنا الله فيه.. ففي أي مكان ولأي سبب ستودعين الدنيا هكذا فجأة.

صُدمتُ من سيل الحروف الذي سُكب في أذُني دون سابق إنذار، فاندفعت بحديثي لها:

- معك حق.. لكن أن تنتظري أو تخافي الموت؟ لقد قتلتِ جميع حركات الدنيا...

قابلت اندفاعي بهدوء تام، قالت بنبرتها التي لم ترتفع منذ جلوسها بجانبي:

- آسفة أزعجتك، الثرثرة ليست من طباعي. على أيٍ.. هل أنتِ من تركه؟

والآن.. لدغني دبور الصمت في لساني؛ جميع ما ذقته طيلة الخمسين عامًا ما هو إلا حبة رمل أمام صحرائها... آه يا رواسي أنتِ من كان يشتكي للصبر؛ أما هي فيشتكي منها الصبر.

تذكرتُ مقولة صديق والدتي العمر ليس بعدد الأيام بل بعدد لطخات الأحداث..

الآن، فقط الآن فهمت مقصدها.

أجبت على سؤالها بلا، هو من اقترح الفراق.

ظُلل المكان للحظات بسُحب الصمت ثم انجابت بتهادي صوتها المنكسر، الحزين: عاملنا بالعدل يا الله.

- بل عاملنا بفضلك يا الله.
- أليس الله عادل، يعدل بين عباده؟
- بلى، لكن إن عوملنا بالعدل ضِعنا.. هلكنا. أعطيك مثالا.. ولنفرض أن حسناتك التي جمعتها في دنياك ستبقيك في الجنة خمسمائة سنة.. ثم ماذا؟ ستطردك الملائكة؛ انتهت فترتك!

ولهذا نسأل الله أن يعاملنا بفضله وكرمه، بفضل الله سيفتح لك أبواب الرزق والسعادة والطاعة وأنتِ لم تسعي إليها.

صمت قليلا والحق يقال أخرستني كحة صادرة من جوف صدري، بعد أن هدأت أكملت حديثي بصوت مبحوح: كوني مطمئنة، فالله لم يخلقك للحزن.. (فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ). هي مجرد تربية ربانية للرجوع إليه عند الانكسار. ولم يخلقك لتعاني! مرضك ما هو إلا

إشارة لمحبة الله لك.. إذا أحب الله عبدًا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه، وإن سخط نفاه وأقصاه.

بكت دون نشيج؛ مواريـة دموعهـا، لـم يشـعر بحرارتهـا أحـد، سـاترةً وجعها؛ فلم يعرف مكمنه سواها.

وكل ما قمتُ بفعله هو محاولة، محاولة لاحتواء حزنها بتربيتٍ خفيف.

المسكينة، قد حفر الحزن والوهن إلى قلبها الوحيد المتعب فتشعب بداخله هامسا لها دون توقف: الموت أرحم.

قبضت على يدي الهرمة؛ متمتمة: كم وددت يا صديقتي لو أنّ يديك كانت رحمة، لتلمس بها العطب الموجود في روحي.

ومضت في طريقها بهدوء وصمت لم أتوقعه.

انتهت المحادثة؟ هي لم تكن محادثة فعلية! كانت أشبه بفضفضة لغريب.

أعانها وشفاها الله، فتاة قوية وإن كانت من الداخل هشة.

وعلى حين غرة مني.. وجدت عقد من الياسمين يلتف حول رقبتي، التفتتُ خلفي لتفاجئني هي مجددًا.. بعناق وعين حمراء تفيض بشيء من الدموع ثم قالت للمرة الأخيرة قبل أن تختفي تماما عن ناظري الضعيف: شكرا لكِ، أشعر أنني أعرفكِ منذ زمن.

أحببتك... كيف أصفه؟ لا لن أحكي عن حبي. فهو يرى ويشعر به ولا يتحدث عنه... أهديك مني سلامًا طويلًا حتى يفنى العالم وأفنى قبله.

سبحان الله، هي الأرواح الطيبة تألف وتُؤلف، يرسل لنا الله أشخاص نجهلهم تمامًا؛ لنتعلم منهم أنه لا فرحة دائمة ولا غمٌ طويل، نتعلم أن الكلمة ربما تبدو تافهة لكن على الآخر ذات وقعٍ شديد..

اللهم احفظ لي أطفالي وأطفالهم، فأنا ضعيفة القلب وجزعة المشاعر على أن أرى المس بهم.

- جدتي! ما هذا الطوق؟

طويتُ حبلَ أفكاري، والتفت إلى صرخة السعيد، كانت الابتسامة تشقه، شعرتُ بألم بفخذي وأسفل ظهري فور نهوضي من على الكرسي، يبدو أنه كما تخدرت الأحاسيس تخدرت الأعضاء أيضًا..

أجبت على سؤاله بجابة لعله لن يفهم منها شيئا:

أنه ذكرى من نقشٍ جديد...

٧٥٧٥٧٥٧٥٧٥

الهدية

بقلم.. إسلام عبد القادر التركي/ مصر

كان (سعيد عبد المجيد مهران) يصارع من أجل النوم ولكن هيهات أن ينال ساعة واحدة ينام فيها نومةَ هنيئة وطبيعية...

وبعد محاولات مستمرة للنوم باءت بالفشل كالمعتاد بالرغم من تجرعه حبة منومة لكنها لم تؤثر في جسده المنهك والواهن بفعل الزمن الذي ترك أثرًا لا تُخطئه العين، التفكير أصابه بالأرق.

هَم بالنهوض بصعوبة شديدة، حاول عدة مرات ولكن جسده الضعيف لا يستجيب ومع إصراره تمكن من الوقوف على قدميه المرتعشة كي يتقدم عدة خطوات تحسس فيها طريقة بتؤدة وحرص.

المنزل غارق في سكون كَئيب ومُوحشْ وكأنه الإنسان الوحيد على وجه الأرض وبالفعل كان هذا هو شعوره الذي سبب لهُ البؤس والحزن الشديد، الوحدة أصابت تفكيره وأثرت على جسده وزادت من مرضه، أخذ يخطو بصعوبة باتجاه أحد المقاعد بغرفة المعيشة لم ينتبه لموقع قدميه وكَاد من الوقوع مرتين، ولكنه تمالكَ نفسه في اللحظة الأخيرة، مستنجدًا بمقعدٍ مجاور لباب غرفته.

وبالرغم من عدم قدرته على المشي وتعثره مرتين؛ لكنه لم يعر لذلك انتباه، بيدَ أنه كان يفكر بشيءٍ آخر شغل عقله وجميع حواسه.

- نعم أرَ ذلك من نظره عينيه الحائرة والحزينة -

وبالفعل كان نظره معلق بتلك العروس الصغيرة المزينة بفستان أحمر وشعر أصفر لامع وأهداب طويلة سوداء، والتي كانت على ما بدى له تنظر إليه وتبتسم ابتسامه حنونه -كما توهم ذلك- "وكأنه رأى فيها حياته الماضية"

ابتسامه طالما افتقدها منذ زمن، نظر لها بصمت وحزن وبادلها الابتسام، مد يده وكأنه يريد أن يسبق خطوات جسده وصولًا لها.

يتذكر الآن وهو يتجه نحوها كم كلفته من جهد ومشقة كي يقتنيها، منذ شهرين وهو يفكر في كيفية حصوله عليها؛ شيخوخته كانت عائقٍ أمام مُحاولات الخروج.

حاول عدة مرات أن يخرج من منزله الذي أصبح كالقبر المظلم، لكنه كان يفشل دائمًا، وفي النهاية ساعده أحد شباب الحي الذي يقطن به، أخذ بيده حتى وصل إلى مبتغاه، كَي يقف أمام متجر متواضع ومتهالك يعرض في زهد عرائس ودميَ صغيرة مصنوعة من المطاط وملابس أطفال ونماذج لسيارات صغيرة بلاستيكية للأطفال.

وقف بجواره الشاب متعجبًا؛ حين استوقفه أمام المتجر وأخذ يتأمل العرائس المعروضة، وزادت دهشة الشاب؛ حينما لمح طيف ابتسامه نادرة تغزو ثغر" سعيد مهران" وترتسم على شفتيه التي تشققت بفعل الزمن، ابتسامه تَنُم عن غبطة شديدة وسعادة مكبوتة؛ فانفرجت شفتاه عن ثناياه ضاحكًا بدون صوت.

الشاب - وهو جَارُه - يعرفه جيدًا فهو الرجل العجوز عابس الوجه دائمًا، لم يلمح الابتسامة تلوح من ثغره أو ترتسم على ملامحه الحزينة، ولكن أسعده؛ رؤيته الآن باسمًا سعيدًا.

طَالما كانوا في الحي يلقبونه "بالعابس"؛ حينما يلمحون طيفه كل أسبوع برفقه أحد جيرانه، متكئ عليه كي يساعده في قضاء حاجته من طعام وخبز وما شابه، وكانت هذه فرصته الوحيدة حتى يرى الخلق والدنيا...عدة خطواتٍ وعدة دقائق كل أسبوع.

- " ما سر سعادتكَ يا عم (سعيد) وأنتَ تُشاهد هذه العروس الصغيرة؟! ما سر إصرارك على الخروج والقدوم إلى هنا، بالرغم من المسافة الطويلة التي تفصلنا عن الحي..! لماذا تَتَكبد عناء الطريق؟! وأنتَ الشيخ المريض؛ لا تقوى حتى على النزول عدة خطوات يسيره كي تقضي حاجتك من الطعام" –

هكذا حدث نفسه متعجبًا؛ فقد كان في حيرة من أمره.

كان يبحث عن جواب، ثُم دنى وأقترب من (سعيد مهران)، هَمس بصوتٍ خفيض قائلًا:

- " عم سعيد...أسمح لي أن أسأل حضرتك..! لماذا استوقفتني هنا؟! بل أرىَ السعادة تتلألأ على ملامح وجهكَ لرؤيتكَ تلك العروس الصغيرة.... عذرًا لِتطفلي.

التفت إليه (سعيد مهران)، والابتسامة مازالت تزين ثغره يشوبها نظرة حزن لاحت من مقلتيه ثم أقترب من الشاب مُحدثًا بصوت خفيض ومرتجف:

"- هل تعلم يا محسن يا ابني...-"

قطع حَديثه فجأة وصَمتَ، كأنه تذكر شيء جعل الدموع تترقرق بداخل عينيه كي يستكمل حديثه بعد أن سيطر على دمعه حاولت الفرار ولكنها لم تنجح...

هَمس بصوتٍ متهدج: -"هل تعلم إنني أحلم بهذا اليوم منذ حوالي أحد عشر عامًا هي أمنيه حياتي، وها هو ذاك اليوم يأتي أخيرًا لكي أراها..."-... الدَمعة التي فشلت في الفرار نجحت وأصبحت دموع حَارة لم يستطع منعُها.

أقترب منه (محسن)... ثُم اِحتضنهُ هَمسًا بعطف – "عم سعيد لا يوجد ما يستحق دموعكَ هذه، بالله عليك كفى... لقد رأيتُ روحكَ تتلألأ، والابتسامة تغزو ملامح وجهكَ من هُنَيهة... الآن ماذا حدث؟! اعتذر لأني تسببت في تذكيركَ بما دفعك للبكاء، فأنا أعرفكَ جيدًا، ولم أركَ تبكي أبدًا أو حتى تبتسم! اليوم فقط تبتسم وتبكي، لمَ كل هذا؟!.-"

- " لا تشغل بالكَ أنَا في أحسن حال وكأنني أسعد إنسان، الآن فقط عَلمتُ معنى

لاسمي(سعيد)؛ الآن فقط أنَا سعيد بالفعل.... سَأبتاع هذه العروس-"

"- أكيد يا عم سعيد... ندخل ونشتريها! ولكن لمن هذه الدمية -"

رَمقه (سعيد مهران) بنظره حَانيه وهَم بالولوج إلى المتجر بدون أن يتفوه بكلمة واحدة.

ابتاعَ الدمية والسعادة تملئ نفسه وكأن حياته وسعادته كانت متوقفة على لحظته هذه، كي يعود إلى منزله، ويضعها أمام ناظريه؛ يتطلع إليها كل يوم انتظارا لليوم الموعود، طالما انتظر هذه اللحظة والتي باتت وشيكة جدًا، كل يوم يمر يُقَربهُ من حلمه الذي راوده لمدة سنوات طوال، وها هي الفرصة تأتي إليه بعد أن عقد العزم وأصر على اتخاذ الخطوة الحاسمة أخيرًا، بعد أن تهيأت له الأسباب والسُبُل، هو الآن لا يفكر في شيءٍ غير تحقيق أمنيته هذه.

تَذكَر كل ذلك وهو يخطو نحو المقعد الذي تمكن من الوصول إليه بعد جُهدٍ كبير، ارتمى عليه بإهمال، ثُم التفت إلى الدمية، قائلًا بصوتٍ دافئ وكأنه يُحدثها:- "غدًا أرىَ ولدي الوحيد وابنته حَفيدتي التي اشتقت لِرؤيتها... لم أراها منذ مَولدِها... فمنذ أن تخرج ولدي الوحيد في كلية الطب وأنا أتُوق لرؤيته زوجًا، وتمنيت رؤيه أولاده؛ أحفادي... وها قد جاء اليوم الذي انتظرته منذ سنوات-"

توقف عن مُحادثه نفسه فجأة، وانتفض كأن ثعبان لدغه، التفت ناحية حجرة الطهي قائلًا:

"- نعم حبيبتي...قادم كي اتناول طعام العشاء معكِ...-"

ثُم صَاح بدون وعي

- " علاء أين أنتَ.... تعالى كي نتناول طعام العشاء معًا.

وكالعادة تخيل زوجته التي فارقت الحياة منذ سنوات تنادي عليه كي يتناول الطعام معها، كانت حبيبته وفراقها أدمى قلبه كفراق ولده الوحيد منذ سفره إلى الخارج بعد زواجه مباشرًا، ولم يراه منذ ذاك الحين.

سنوات مرت عليه وحيدًا... وبالصدفة عَلِمَ برجوع ولده الوحيد من الخارج منذُ خمس سنوات؛ ومما أثر فيه أنه لم يفكر في زيارته بعد طول غياب، أو حتى الاتصال به ولو مرة واحدة للاطمئنان عليه... أو يحقق لهُ أمنيته كي يرى حفيدته الصغيرة الوحيدة، وكأنه يَخجل منه وهو الأب الفقير للطبيب المشهور، مَيسور الحال.

ولكن غدًا عيد ميلاد حَفيدته الثامن وهو عَاقِد العزم على الذهاب إليها بعد أن حصل على عنوان منزل ابنه العاق بطريق الصدفة...

ظل مُستيقظًا حتى مشرق الشمس، ثم ارتدى ثيابه في عُجَالة وخرج إلى ميعاده المُنتظر بصُحبه "محسن" الذي وعَده باصطحابه إلى غايته المنشودة.

استوقف (محسن) سيارة أجرة، جلسَ على المقعد الخلفي وبجواره (سعيد)، يَحتضن الدُمية بيد واليد الأخرى تقبض على ورقة صغيرة بها عنوان ولده، لاحظ محسن ذلك، فابتسم وابتهج؛ حينما قال لهُ (سعيد):-" الهدية تلك لِحفيدتي، حبيبتي...وهذا عنوان ابني سَأراهم أخيرًا...-"

كانت السعادة تملأ قلبه، وهو يقترب من منزل ابنه... لكن وعلى حين غِرة، رأىَ (محسن) الورقة الصغيرة تطير في الهواء؛ بعد أن فلتت من يد (سعيد) وحلقت بعيدًا؛ بفعل سرعة السيارة.

التفت (محسن) إليه مُحذرًا: - "عم سعيد الورقة...فَلتت من يدك...-"

لم يَسمعه (سعيد مهران) ولن يسمعه أبدًا؛ رَوحهُ حَلقت بعيدًا خلف الورقة، وأسْلم الروح لخالقهُ وعلى وجهه ابتسامة متلألئة، مُحتضنًا العروس هديته الوحيدة لحفيدته التي كان ينتظرها منذ سنوات.

كانت صَدمة (محسن) شديدة، ولكنه أصرَ على تحقيق ما كان يصبو لهُ ويحلم بهِ؛ وهو تَسليم الهدية إلى حفيدته، بعد أن لمح العنوان قبل أن يذهب أدراج الرياح.... وصل إلى المنزل فاستوقف سائق السيارة الذي أذهلهُ ما حدث؛ فحوقل وبَسمل وترحم على روح (سعيد).

تَرجلَ (محسن) في عُجَالةٍ مُصطحِبًا الدُمية صَعدٍ إلى منزل (علاء)... وما هي إلا دقائق معدودة، هَبطَ خِلاّلها وفي إثرُهُ (علاء)... اقترب من باب السيارة، ففَتحهُ كي يَجدَ والده وكأنه يَبتسم لهُ، دنى منهُ... ودموع الندم تُدمي قلبه ثم لَثمَ يدَهُ، قائلًا بصوتٍ مرتجف:- "سَامحني يا أبي..."

قطع حَديثه (محسن) صَائحًا في وجهه: -" لن يُفيدكَ الندم الآن... وللأسف ربما مات وهو راضي عنكَ بالرغم من قسوتكَ وعقوقكَ له! ولكن هناك عِقاب سَتنالهُ عاجلًا أم أجلًا..."

انتبه لما قالهُ (محسن) فمَادَت به الأرض ندمًا؛ تذكر شقَاء أبيه، وكم ضحى من أجله كي يكون في أعلى المراتب... - "أتمنى أن تكون أحسن؛ أحسن من أبيك" - كما كان يقوله لهُ دائمًا.

"الآن صِرتُ طبيب مَرموق، وأمسيتُ أحسن الناس، ولكنني خَسرتُ أعز الناس... لن أغفر لِنفسي أبدًا."

وبِباب المنزل وقفت حَفيده (سعيد مهران) وهي تَحتضن الدُّمية" هدية جِدها الوحيدة!"- ووجْهُهَا مُتلألأ بابتسامة بريئة ونظرة اندهاش تَحولت سريعًا إلى نظره حزن.

" وبقدر سنوات حزنه مات سعيدًا مبتسمًا "

مات عَم سعيد " وهو سعيد بالفعل.. كما لم يَعش من قبل "

" حَاسب نفسكَ قبل فوات الأوان...بعدها لن يُفيدكَ الندم "

خلال دقيقة واحدة

بقلم.. نورا عبد الله السلمان / السعودية

أريد أن أسألك سؤالًا..

سؤالًا بسيطًا!

ماذا قد تفعل خلال الدقيقة الواحِدة؟

هل ستأكل؟ أم ستلعب؟ هل ستتشعر بالنعاس ثم تذهب للنوم؟ أم قد تجلس مع عائلتك خلالها؟

هل ربما ستذهب لزيارة لصديق؟

أم قد تبدأ تفكر بشيءٍ يستحق؟

حينما تكون معتادًا على الأجواء العائلية، ذلك كفيل بالتغطيّة على حالتك المادية مهما كانت، لكن حينما تفتقد من يجعلك تبتسم بسبب هذا

حينها تظهر لك مدى وحشية الحياة، وكمثال خُذ بحياتي أنا

فأنا أقف فوق سطح منزل عائلتي..

أو لِنقُل فوق هدام منزل عائلتي، بمكان كان يعج بالضجيج في وقتٍ ما لكن الآن لا تسمع به سوى حفيف الرياح حين تتخلله.

لا وجود لعلامات الحياة، أو أي شيء يريح قلبي المُهشم..

فأنا عدت بعد سنه ونصف لموطني لأجدهم تلاشوا كما لم يكونوا من قبل!

لماذا؟ ماذا حدث! وبحق الله لما كل هذا!!

أردتُ أجوبه تُلملم شتات قلبي لكني فقط لم أرى سوى ذكرى لضحكات الأطفال هنا وطيفي معهم..

لما ما زلت أتذكر؟ لقد رحلت من هنا! اذًا لما قلبي الأحمق لم ينسى؟

الأمر مؤلم لنُخاع..

أهذه نهاية تلهُفي الطويل؟

ضحكت بسخرية فيما أسير بخطىً ثقيلة بين المباني المحطمة، أنا لا أجد وصفًا يليق بما أراه! مروِّع؟ مهوِّل؟ مُخيف؟!

المنظر فقط يفطِر القلب لنصفين، كأنه لم يكن هنالك بشر من قبل! أنحن بهذا الضعف؟ نذهب بكلِّ هدوء ولا يبقى خلفنا سوى رُكام وذكرى صغيره؟

أم نحن بتلكِ القسوة؟ في حين يأتي موعد وداعِ أحدنا فهو يأتي بتلك البغتة ولا يرحم القلوب التي ستفقدُه!

كيف للمرء العيش بعد الفقد؟ بعد الرحيل! بعد الوداع الأبدي!

والأسوأ أنه لا يستطيع التعبير سوى بالبكاء، ولذلك لن يفهمه أحد!

تنهدتُ بعمق لأشتت أفكاري بعدها وأسير بخطى أسرع دون التأمل بالتفاصيل، فلا بد من ناجين هنا!

ما زلت غير مصدق بأن قريتي النائية مسحت من الوجود!

بعد ساعة ونصف تقريبًا من المسير رأيت من بعيد عدة خيام تقطن أسفل الجبل القريب، تبدو كملاجئ لذلك ابتسمت باتساع قبل أن أخطو إليها

كنت سعيدًا جدًا لرؤيتي أمل للحياة هنا، سعيدًا أن هنالك من لم يرحل عن هذا المكان! فهذا دليل على أن قريتي الصغيرة وموطني لم تتلاشى كليًا بعد!

أسرعت بخطواتي أكثر لأركض بعدها وأبتسم باتساع لمنظرهم لكن سرعان ما اختفت كوميض أمل..

المنظر كان كاسرًا أكثر من المباني المهدمة التي لم يكن لها صوت! فهنا جميع الأعمار لكن لا أثر للحياة الجميلة، لا أثر للأرواح فقط أجساد تتحرك على حسب استطاعتها..

كانوا بائسين لم يملِكوا سببًا للعيش، يائسين جدًا لإكمال الحياة التي ضربتهم من كل الجهات! آلمني قلبي لهيئتهم التعيسة..

هل حقًا اعتقدت أنهم أملي قبل قليل؟

خطوت خطوة نحوهم بتردد لينتبه لي طفلًا ما، وقف بعدها بسرعة مهرولًا نحوي:

"سيدي؟ سيدي؟"

نادى وهو يشدُّ يدي لأنتبه له لكني ما زلت مصدومًا، أهذا المكان الذي ظننت أن بهِ حياة؟ هل كنت أمازح نفسي؟

"أتملك ما تعطيني إيّاه؟ " سأل ليتجمع الأطفال حولي برجاء ولهفة لأغمض عيناي بألم وحسرة، أنا أتيت مناشدًا بهم لكن ما يحدث الآن هو العكس من ذلك تمامًا.

"أ- أنا آسِف تأتأت بعجز لتنهمر دموعي ويبتعد عني الأطفال شيئًا فشيئًا"

"سيدي هل تبكي لأنك جائع؟ أنا آسف لكني فقط أملك هذا" قال الطفل الذي رآني أولًا وهو يمدُّ لي كِسرة خبز صغيرة كان متشبثًا بها بيديه النحيلة، انخفضت لمستواه لأعناقه بحرارة "أنت بطل" همست بأذنه ليبتسم لي بوسع ويومئ:

"والداي كانا يقولان لي ذلك! " قال بابتسامه لأشعر بقلبي يُعتصر من الألم، هل قال كانا؟ هل تحدث بصيغة الماضي للتّو؟

فهو إن لم أخطئ لم يتخطى السادسة بعد..

"سأقولها لك دائمًا إن أردت " أخبرته بلطف ليومئ لي بسعادة وهو يسحبني خلفه لأذهب معه بابتسامة صغيرة.

سرت خلفه ليسير خلفي الأطفال فيما بات البعض يخرج من تلك الخيام ليلقي نظره عليّ، توترت لكني أبقيتُ ابتسامتي على محياي لكي لا أُخيف الأطفال خلفي.

"عمي! هذا السيد قال أني بطل كما كان يفعل أبي! " تحدث الطفل للرجل الغاضب هناك بسعادة طاغية، أمسك الرجل به ليسحبه خلفه وهو يوجّه لي نظرات حادة.

"أمم أ - أهلًا؟ "تمتمت بشكلٍ أخرق محاولًا التعرف عليه بوّد لكن لا شيء تغيّر من ملامحه، إلهي ساعدني!

"لما أنت هنا؟ "سأل بجمود لأتوتر أكثر" أ-أنا فقط خِلت أن أجد عائلتي هنا "تمتمت بيأس وتوتر ليحدق بي بتفحص.

"وهل أنت أخرق لتبقى للآن على أمل؟ أنظر! أنت هنا منذ عدة دقائق والجميع يحدق بك ولم يتعرف عليك! اذًا لم للآن ما زلت تظن أنهم هنا؟"

قال ليكسر شيئًا ما بداخلي جعل أطرافي ترتعش " ه-هل هذا هو عددكم أ-أجمع؟؟ "سألت ببراءة طفل فيما أنظر لجميع الموجودين اللذين يحدقون بي بغرابة لأشعر بغصّة حلقي تصارع للخروج.

أعدت نظري للرجل مرة أخرى برجاء لكن نظرته كانت بلا حياة، كان يخبرني بنظراته أنهم جميعًا مرّوا بذلك، جميعهم سُلب منهم الأمل، جميعهم مرّوا بذلك الحطام ليصلوا هنا بكلّ يأس..

كانوا مثلي بلا أمل ولا حياة، وما يؤلمني الآن ليست ذاتي التي عاشت نصف حياتها مع من تحب، أنا أتألم لمن شكلوا حلّقة حولي الآن ويغنون بسعادة وكأنهم لم يصبحوا هياكل من شدة الجوع!

لم يعيشوا سوى بضع سنين مع عائلاتهم التي رحلت، فقدوها في أشد سنين العمر حاجةً للعائلة، ومع هذا تجد أنهم حين يبتسمون تظهر ابتسامتهم كما لو أنهم لم يُعانوا من شيءٍ قط..

"أستطيع النوم بجانبك؟ أرجوك وافق "تحدث أحدهم لي لأنظر له مطولًا لكن قفز الأطفال الآخرين الذين يريدون مشاركته طلبه جعل دموعي تنهمر مجددًا

ما بالي أصبحتُ طفلًا أمامهم!

"سيدي هل تشعر بالجوع مجددًا؟" سألوني بعبوس لأومئ لهم سلبًا قبل أن أنحني لمستواهم " أنا حزين لأني سأكون الشرير الذي ستقضون عليه أيها الأبطال! "أخبرتهم ليقفزوا بحماسٍ وسعادة لكنهم بعدها بدأوا يترامون علي واحدًا تلوَّ الآخر..

بقيت معهم أرسم الابتسامة على ثغرهم بقدر استطاعتي حتى حلَّ المساء ليستعد الجميع للنوم لكن محاولاتهم فاشلة، فمن سيشعر براحة بهذه الخيام الباردة؟

"ستنام هناك" قال لي الرجل الغاضب سابقًا لأبتسم له بتوتر وأنهض لحيثُ أشار لي " أعتذر عن سوء تصرفي، لكن هذا الصواب كيّ لا تتأمل كثيرًا وأيضًا يبدو أن الأطفال أحبوك كثيرًا لذا أمل أن تقضي بعض الوقت معهم"

قال بنبرةٍ شبه لطيفه لأومئ له بسرعة لكنه فقط اقترب وطبطب على كتفي الأيمن قبل أن يلتف ليرحل "أتمنى لو أملك ما أعطيهم إياه.. "أت"

تمتمت لنفسي قبل أن أنام بأسى: هل تعلمون شيئًا؟

أحمق لأني لا أستطيع إخفاء خوفي، خوفي حينما يخبروني أنهم جائعون، ماذا أفعل؟ ماذا أقدِّم لهم؟ صدقوني لو استطعت تقديم روحي كطعام لفعلت!

أمضيت شهرًا هنا الآن، قضيته كل يوم بصحبتهم لكنهم الآن أنحف من ذي قبل، كما أنّي أيضًا فقدتُ الطفل الذي قدَّم كَسرة الخبز لي في أول يوم، قبل ثلاثةٍ أيام من الآن، كان يبتسم وهو يلفظ أنفاسِه الأخيرة.. غرَّقت عيناي بالدموع لتذكري لابتسامته الدافئة، فلا شيء أسوء من ابتسامة الرحيل..

وضعت ذراعيَّ فوق عينيَّ كطفل لكبح دموعي وشهقاتي، أزداد نحيبي أكثر لتذكري كلامه الأخير:

"عمي.. لقد هزمتني.. أ- أصبحتُ بطلًا خاسِر -..."

لِمَ تُسلب الأروح بهذه البساطة رغم عظمتها؟!

الجميع يفرح حين تولد.. إذًا لِمَ هذه القسوة حين ترحل!؟

دائمًا ما أسأل عائلتي لِمَ على الطيّبون أن يرحلوا مبكرًا؟

لم أكن أفهم جواب والدي حينها لصغر سنّي لكني الآن أدركه جيدًا وأدرك مدى عمقه..

"لأن مكانهم ليس معنا، ليس على الأرض بنيّ"

كنت جاهلًا لأفهم أن هنالك حياة أخرى بالسماء تُدعى الجنة، تُدعى النعيم ولا تخطر على قلب بشر..

لم أكن أفهم قط أنه فقط بالحروب تُفقد الكثير من الأرواح.. أرواح لم تذق نعيم الحياة بعد ولم تكتف الحياة منهم لتسلب منهم أعزاءهم بأبشع طريقة وأمام أعينهم!

هل كنت تمتلك فكرةً عن هذا قبل اليوم؟ هل كنت ولو قليلًا تشعر بمرارة ألمهم؟

هل كنت تعرف أنه فقط بالحروب.. فقط بساحِة القتال!

وخِلال دقيقه واحدة!

قد تفقِد حياتك وقد تُنقِذ.

رسائل لن تقرأ

بقلم.. فوزية بوبكري / تونس

إن الذي قطعوا أطرافه سيبقى له قلب يطير به ويهديه.

لكن الذي قتلوا أحلامه سيكون جسما تائها في أرجائه بلا روح ترشده وتهديه.

بهذه الكلمات أتمت رسالتها رقم خمسة وعشرين. قامت بطي الورقة بلطف ووضعتها فوق مجموعة رسائل مبعثرة على حافة سرير غير مرتب، قميص نوم ملقى بإهمال فوق الوسادة. كل ما في الغرفة يوحي بالفوضى وأن صاحبتها قضت ليلة من الأرق والقلق والتوتر.

أشعة الشمس تخترق الستائر الرمادية فتنعكس على وجنتيها الباهتتين وتلامس خصلات شعرها الأسود مما أكسبه بريقا جميلًا. تقدمت نحو النافذة وأزاحت الستائر فغمر نور الشمس الغرفة. تفاءلت خيرا، يوم ربيعي في شهر جانفي.

توقفت أمام المرآة الكبيرة التي تتوسط خزانة ملابسها، تحركت أصابعها فوق وجنتيها، اكتشفت أن شيئا قد تغير، ها قد بدأ العمر يمضي وبدأت خطوط الهرم تتعمق في الجسد بعد أن تغلغلت في الروح. وكأنها ترى وجهها لأول مرة، فمنذ زمن بعيد توقفت عن النظر إلى وجهها ولكنها اليوم على موعد انتظرته طيلة خمس وعشرين سنة.

وقفت أمام المرآة تبحث في انعكاسها عن ملامح تلك الطالبة الثائرة، المفعمة بالحيوية، الجريئة والتي كانت تقود احتجاجات الطلبة في زمن ما أشبه بهذه الأيام وكأن شهر جانفي هو شهر الثورات والاحتجاجات في بلدها الذي كُتب عليه ألا يحكمه إلا كل ظالم متجبر.

أخذت الأسئلة تتدفق مع تدفق نهر الذكريات.

ترى هل يمكنني أن أبدأ من جديد؟ من تلك المحطة الوجودية أين توقف بي قطار الزمن وأعيدُ رسم الحكاية.

هل بإمكاني أن أعيد رسم القدر وأمحو كل السياقات وأغير الحيثيات والمجريات ويعود قطار العمر؟ هل أزور التاريخ والمكان وكل ما مرّ علينا من ساعات الزمن؟

هل يمكنني أن أعود إلى تلك المحطة في لحظة! في طرفة عين!؟

هل كنت نائمة؟ هل كنت في سبات واستيقظت اليوم على وقع موعد ضُرب منذ زمن.

ها هي تحاول إعادة اللحظات التي لم تكن حلما وأيضا لم تكن واقعا، فقط كانت حالة البين بين.

عادت إلى حزمة الرسائل واحتضنتها كما تحتضن أم مولودها واتجهت نحو المطبخ لتعد قهوتها الصباحية، توقفت أمام صورة لوالدتها تتوسط قاعة جلوس صغيرة بأثاث متواضع. نظرت إلى الصورة وخاطبتها: كم تمنيت يا أمي أن يطول بك العمر لأجيبك عن سؤالك الذي ظللت تسألينه لي كل ما تقدم أحدهم لطلب يدي بعد طلاقي:

- ماذا ومن تنتظرين يا ابنتي؟ العمر يمضي بك ولن أبقى معك دائما، ستجدين نفسك وحيدة في يوم من الأيام.!
- اليوم يا أمي أستطيع أن أبوح لك بأني كنت أنتظر هذا اليوم، الرابع عشر من جانفي لسنة ألفين ووإحدى عشر. نعم يا أمي هو عيد ميلادي الخامس والأربعين ولكنه أيضا تاريخ موعدٍ ضربته مع من سكن الروح والقلب منذ خمس وعشرين عاما.

ياااه منذ أعوام وقلبي منفيّ على هامش الجسد، على هامش الحياة والأيام، منتظرة هذا التاريخ.

أيام شبيهه بهذه الأيام، شعب غاضب وظلم وقهر يطغى على كل إحساس. اتكأت على الكرسي الهزاز الذي كانت تجلس عليه والدتها وصور من الماضي البعيد يمر كشريط بالأبيض والأسود.

بعض المشاهد نعاند كي لا نراها ولا نتذكرها ولكننا لا نشاهد غيرها:

مجموعة من الطلبة يجرون عبر أزقة المدينة القديمة وبوليس مدجج بالعصي والسلاح يلاحقهم، وفتاة في العشرين ترتدي بنطلونا من الجينز الأزرق وحذاءً رياضيًا وقد شدت شعرها الطويل على شكل ذيل حصان وكأنها كانت مستعدة لهذا الماراتون. كأن تتعدو بخفة وقد تخلصت من حزمة مناشير بإلقائها في حاوية كبيرة للقمامة وشاب ملتحي بجسد رياضي يسبقها بخطوات، يلتفت إليها ويحثها على الإسراع. لوهلة أحست أنها ستسقط أرضًا وأن البوليس سيمسك بها اتكأت على باب نصف مغلق لعمارة متداعية، تراجع الشاب خطوات يريد الإمساك بها وجرها حتى لا يلحق بها من يطاردونهم من تلك الفرقة الشرسة ولكن

يدا أمسكتها ودفعتها داخل بهو العمارة فجأة، يد أخرى جذبتها هيومن لحق بها وأدخلتهما داخل القبو المظلم وخيال شخص يشير لهما أن أصمتا!

تركهما في حيرة بين الخوف منه والاطمئنان إلي أنهما اختفيا عن أنظار مطارديهم.

وقف الرجل أمام باب العمارة بكل ثقة واطمئنان. كانت كل فرائصها ترتعد وهو يحاول تهدئتها بوضع يده على رأسها كأنه يحميها من تلك الكلاب المسعورة. ازدادا التصاقا وهما يسمعان شرطيًا يسأل حارس العمارة هل رأيت شاب وفتاة يعدوان من هنا؟

أجاب الرجل نعم رأيتهما.

لم تعد رجلاها تقويان على حملها، سقطت أرضا وهو يحاول إمساكها حتى لا تحدث صوتا.

- أين اتجها؟ سأله.
- اتجها إلى هناك وأظن أنهما اختفيا داخل ذلك الزقاق.

تنفس الشاب الصعداء أما هي فقد كانت شبه مغمى عليها فلم تسمع شيئا وظلت شاخصة تنتظر انقضاض الكلاب عليها وعلى من معها.

همس لها: أنت عمري الذي لا ينطفئ أبدا.

وأنتِ الوطن وأنت السكن.

أجابته نظراتها الدامعة.

انحبست الأنفاس، لا حركة إلا حركة العيون.

قبل أن تتمكن من الكلام دخل الحارس وطلب منهما البقاء في غرفته في قبو العمارة ساعة إلى أن تبتعد الشرطة وتهدأ موجة المطاردات.

توقف النبض وتوقف الزمن، لحظات اجتمعت فيها كل المتناقضات من شعور بالخوف وإحساس بالأمان، شعور بالجرم ويقين بحقهما في الحب. انتظار لهدوء يسود الشارع خارجا حتى يتمكن كل واحد منهما من الالتحاق بمبيته الجامعي وأمنية بأن يطول الوقت وهما مع بعض.

قال لها همسا: لا أعرف ما الذي ينتظرني غدا ولكنك ستبقين الحلم الذي أحيا من أجله.

نظر في عينيها، رأت بريقهما رغم الضوء الخافت المتسرب من باب الغرفة الذي فتحه بعد أن تأكد من ابتعاد الشرطة ثم أمسك بيديها وقال هل تعلمين أن لي حلمين، الحلم الأول أنتِ والحلم الثاني وطن حر بلا ظلم ولا قهر.

قالت بصوت مرتعش: أعترف لك الآن أني لا أستطيع تجاوزك فأنت محطتي الأخيرة ولن يكون بعدك أي شيء. أعترف لك أني سأبقى كما أنا لو قرّر الجلاد يوما إبعادنا عن بعض. سأبقى أكتب عنك وحدك، سأكتب وأتخطى كل لحظات ضعفي وحزني بك أنت. ولا أحد غيرك يشعرني بالقوة وأنا أقول له كم أنا ضعيفة. أعدك سأبقى كما أنا، كما أنت، سأحادث عنك القمر وأسأل عنك موج البحر، برغم خوفي وحزني ستبقى أيامي بك ومعك هي الأجمل والأروع.

ساعة توقف عندها قطار الزمن. ليعلن أنها محطتها الأخيرة التي توقفت عندها ولم تغادرها طيلة ربع قرن مما تعده ساعات الزمن في وطن كان هو السجن وهو الحزن وهو الحب. وطن كل ما فيه يأبى النسيان، تتكرّر الأحداث فيه كلما توقف قطاره في محطة من تاريخه المليء بالمِحَن، وهل نحن إلا صورة عن هذا الوطن؟

نظرت إليها، إلى نفسها وهي ممسكة بظهر الكرسي القابع في سكون منذ سنة ونصف، يوم ودعت أمها وسندها الوداع الأخير، انتابها إحساس بأنها لم تتغير أو هكذا بدا لها.

تحدثت إلى نفسها، سمعتها، طرب القلب لأغاني الانتصار وكسر النواميس، نواميس الزمن.

أعادت لما مضى وصلا وأقنعت نفسها أن الزمن سيعود بهما مُفرَغا بما حمل من ذكريات تشقّق سطحها من ثقل تراكمات الماضي وفوضى الحاضر؟

طارت النفس فرحا وعانقت روحها سماء صافية كصفاء هذا اليوم الشتويّ، لا تشبه سماء ما مرّ عليها من محن. امتدت يدها لصورة والدتها، مررتها عليها برفق واتجهت نحو المطبخ وهي تمتم: هل يمكن أن يكون المستحيل وعدا يا أمي فيصبح الحلم حقيقة؟

أسئلة أعمق من أن يجيب عليها عقلها في الوقت الوجيز الذي يستغرقه السير من مكانها إلى المطبخ.

وضعت حزمة الرسائل على المنضدة الملاصقة لنافذة تطل على حديقة صغيرة، فتحتها فتسربت نسمة صباحية باردة، بعثت نشاطا في جسمها

لم يكن لتشعر به قبل أن تتناول فنجان قهوتها، ذلك السائل الأسود الذي طالما مكّنها من الصمود أمام كل ذلك الزخم من الأدوار التي كان عليها تقمصها طيلة أيام عصيبة عاشتها. ما أصعب تلك الصباحات الشتائية الباردة التي ظلت تغتال ذاكرتها المتسائلة من إرهاق مزمن لم يفارقها على مدى خمس وعشرين سنة، ولكن هذا الصباح مختلف عن كل صباحات الشتاءات السابقة.

بخطى راقصة شغلت آلة القهوة الكهربائية بعد أن عبأتها بما يلزمها من ماء وبنّ.

اتجهت نحو جهاز راديو كانت قد أهملته من سنين في ركن من المطبخ فأصبح مجرد ديكور. فهي ومنذ زمن بعيد لم تعد تهتم لسماع فيروز عندما تشرب قهوتها الصباحية ولا إلى أم كلثوم وهي تستعد للنوم، فتحته تريد أن تعرف ما جدّ من أخبار فأخبار البارحة في قناة الجزيرة توحي بأن الاحتجاجات في تصاعد خطير بعد أن أعلنت الحكومة عن توقُف الدروس في كافة المؤسسات التربوية منذ أربعة أيام. مما جعلها تلازم البيت الذي تقيم فيه لوحدها منذ وفاة والدتها في إحدى ضواحي العاصمة.

يوم رابع لن تلتقي فيه بتلامذتها ولن تعيش معهم شرح معلقة أمرئ القيس ولا شرح كيف كان حب جميل لبثينة عذريا.

انطلق صوت من آلة القهوة قطع عنها حبل أفكارها معلنا أنها أصبحت جاهزة.

بحثت بين الرفوف عن فنجان مُميّز مخبئ بين طقم الكؤوس. فنجان يحمل ذكرى عزيزة عليها حتى أنها لم تكن تستعمله إلا في يوم عيد ميلادها. هو ذكرى من ذلك الحبيب الغائب عن عينيها والحاضر في كل تفاصيل أيامها. كأس أهداه لها في مثل هذا اليوم، عيد ميلادها التاسع عشر لما كانت طالبة في سنتها الأولى آداب عربية وهو في السنة الثانية محاماة.

كانت طالبة متفوقة وكان طالبا ثائرا..

كان من الشمال وكانت من الجنوب..

كان صامتا في وقار وكانت مشاكسة في إصرار..

كان ملتزما، متدينا وكانت عادية غير محجبة فقد كان ممنوعا على الطالبات دخول الجامعة بالحجاب.

كذلك كانت الجامعة في الثمانينات، فضاء يحتضن جيلا خصيبا كالرياح اللواقح.

تذكر جيّدا أنهم كانوا جيلا يطير بأكثر من جناح، جيل اجتمع من كل أرجاء الوطن بل كان ساحة وسعت كل المشارب الفكرية ومن كل شعاب المعارف. جامعة الآداب كانت تتوقّد فكرا وجدلا عميقا، ينكسر على أعتابها كلّ حدّ معرفيّ فطلبة العربية لا تفوتهم كتب الفلسفة وطلبة الفلسفة يحفظون المعلقات والكل ينافس طلبة علم النفس في تتبع كتابات فرويد وهم ينافسوننا في استبطان نصوصنا الأدبية، يعرّج الكل على علم الاجتماع فيعرج أهله على الرواية كي لا يفوتهم أي نقاش في أية حلقة من الحلقات. خلطة عجيبة كنمل لا يتوقف عن السعي، كان كل

الطلبة لا يتركون علما إلا اقتحموه ولا كتابا إلا التهموه. كان الجوع للمعارف طاغيا عليهم، عرفوا كل المدارس الفكرية الغربية منها والشرقية.

كانوا أساتذة بعضهم، لا يبيت الواحد منهم مغتاظا إلا من زميل أو زميلة جحد كتابا أو أخفى معلومة ظفر بها صدفة، كانت الثقافة والمعرفة كبركة ماء تستهدي إليها الطيور المهاجرة. أما السياسة فكان لها شأن أكبر وأخطر، كان الرفيق يخطب ويحاول إقناع الكل بأن الشيوعية هي الحل أما الإسلامي فيمكث ساعات طوال ليثبت ضرر تهافت المادية التاريخية، والقومي والبعثي وغيرهم يخطبون في حلقات والكل متفق على شيء واحد ألا وهو فساد وظلم الحاكم وضرورة الاحتجاج والثورة.

ومع ذلك كان الكل يحب ويعشق ويقول الشعر في حبيبته والفتيات يبادلن الشباب المشاعر في خفر واستحياء.

آاااه لهيبة الذكرى.

أمسكت فنجان القهوة التي بردت وهي تحرك فيها وقد سرحت في كل ما كان يوما، حياة متكاملة.

جلست على كرسيها جانب النافذة المفتوحة، أحست بنسمة باردة تلفح وجهها ولكنها بعثت فيها نشاطا وزادتها تفاؤلا بأن يومها سيكون مُميّزا ورائعا كما انتظرته على مدى سنوات.

قربت إليها حزمة الرسائل.

تساءلت هل الماضي يمضي حقا أم أنه يعرش فينا لنعيش فيه كبيت ألفناه وألفنا؟

نثرت الرسائل أمامها على الطاولة، تحسّست بيديها الأوراق التي طال بعضها القدم فتغيّر لونها، ما كان لأي ضياء أن يغطي مساحات الحنين سوى موعدها مع هذه الرسائل التي تكتبها في مثل هذا اليوم من كل عام وعلى مدى خمسة وعشرين عاما، كان يُخيّل لها طيلة هذه السنوات أن هناك لحظة مستمرة لم تتوقف أبدا، لا زالت تحدث في مكان ما من هذا الوطن الذي ضاق على رحابته بشبابه، لحظة لم تعشها ولكنها مرتبطة بها، فأصبحت هذه الرسائل التي لا تُرسلها هي التي ترسم الـ ٣٦٥ يوما القادمة من حياتها كما ترسم حلمها بذلك اللقاء المؤجّل، حرصت على كتابة رسالة كل عام في مثل هذا اليوم كأنها تريد أن تصرف طاقة الحزن في اتجاه آخر، رسائل ظلت تبثها مخزونا من الطاقة يجعلها تقاوم الجفاف الذي طغى على أرض واقعها وأحلامها.

أمسكت رسالة في الرزمة التي أمامها، لا تشبه بقية الرسائل، كانت مجرد كلمات كتبت على علبة دخان فارغة.

التاريخ فيفري ١٩٨٤:

حب عمري عديني أن تنتظريني، قد أخرج من السجن قبل أن أتم مدة الحكم وقد أتمم الربع قرن داخل زنزانتي، ستظلين أنت الأمل والحلم الذي يمدّ شراييني بنبض الحياة، سيكون هذا الأمل هو ما يربطني بالعالم الخارجي.

حب عمري وعدٌ علي، سأبحث عنك في كل مكان. أعلم أن خمسا وعشرين عاما كفيلة بتغيير العناوين وتغيير ملامح الإنسان والمكان ولكن قلبي سيهديني إليك. لو لم أجدك قبل مرور هذه المدة سيكون هذا موعد بيننا، بعد خمس وعشرين عاما نلتقي عند تلك الصخرة، على شاطئ ذلك البحر الذي شهد لقاءاتنا ومواعيدنا، ليكن موعدنا عند منتصف النهار في يوم ميلادك، هل تذكرين أن ذلك التاريخ كان كلمة السر بيننا لما كنا نقرر نشر المناشير الثورية بين الطلبة؟ تلك الرمال وتلك الصخور التي شهدت كل لقاءاتنا خلال سنتين كانتا من أجمل أيامنا، مكان شهد حبنا وثورتنا وكفاحنا. إذا أتيت يومها يا حب عمري إلى الموعد ولم تجديني اعلمي أني قضيت نحبي لأنه لن يمنعني عن موعدي معك سوى الموت. وإذا أتيت ولم أجدك سأعلم أنك نسيتيني ونسيت موعدنا هذا.

عديني أنك ستأتي وأنك لن تخلفي موعدنا.

مسحت دموعا انسكبت من عينيها وشريط ذكرى تلك الأيام يمر من أمامها كأنه حدث منذ يوم أو يومين. أعادت الرسالة إلى علبة السجائر الفارغة وانطلقت الذكريات في تدافع عجيب.

بعد أن تأكد حارس تلك العمارة من خلو المكان من رجال الشرطة وأن كل المظاهرات قد وقع تفريقها بالقوة قال لهما: الآن يمكنكما الخروج في أمان. خرجا من ذلك القبو المظلم ليتبين لهما وجه ذلك الرجل الشهم الذي أنقذهما من اعتقال محقق، كان كهلا في الخمسين من عمره، تعلو وجهه سمرة، تبتسم عيناه قبل شفتيه، قال لهما باقتضاب وهو يقرأ سؤالا كسا ملامحهما: اعتقلت في سنة أربع وستين من طرف أسلاف هؤلاء الكلاب المسعورة والتي ورثت عنها شراستها وتدربت عليها، وكأن

التاريخ لا يريد أن يتغير والظلم يأبى أن يرحل عن هذه الأرض الطيبة. لذا لا تسألاني لماذا فعلت ما فعلت وعرضت نفسي للخطر.

شكراه وانطلقا وسط شارع خال إلا من بعض المترجلين وبعض سيارات الأجرة، أوقفا إحداها وركبا.

إلى أين؟ قال السائق بتجهم:

- إلى المبيت الجامعي للفتيات أجابه مرافقها، سأوصل أختي إلى هناك أضاف وقد لاحظ نظرة ريبة في عيني الرجل. فقد كان معروفا لدى الكل أن أغلبية سائقي سيارات الأجرة من المخبرين.

ظلت طول الطريق صامتة بينما كان هو يجاذب أطراف الحديث مع السائق عن هؤلاء المشاغبين الذين يهددون الأمن والأمان في بلد الرفاهية والتقدم، محاولا درء الشبهة عنهما.

وقفت السيارة أمام بناية المبيت، نزلا بعد أن دفع الأجرة دخلت المبنى ورحل هو ليتم المسافة الفاصلة بين مبيت الفتيات ومبيت الشباب سيرا على الأقدام ليكون ذلك آخر لقاء لها به.

تعطلت الدروس أسبوعا كاملا مع حملات تفتيش ومداهمات ليلا ونهارا لغرف الطالبات بحثا عن أدلة إدانة، تمكنت من إتلاف كل ما عندها من مسودات لمنشورات تكفلت هي بتحريرها. وقع اعتقال العديد من الفتيات، ربما مظهرها وعدم لبسها للحجاب جعلها خارج الشبهات فهي

ممـن لا يمكـن تصـنيفه لا مـن اليمـين ولا مـن اليسـار، وقـد طالـت الاعتقالات كل التيارات في تلك الفترة.

بعد أسبوع من الحيرة، تباينت فيه الأخبار والشائعات حول من تم اعتقالهم من الطلبة، تقرر إعادة فتح الكليات واستئناف الدروس كاملة. انتقل الخبر بسرعة بين غرف الطالبات. واستعدّ الكل للعودة.

باتت ليلتها بين خوف ورجاء، هل ستلقاه غدا؟ هل تمّ اعتقاله؟ هل نجا من قبضتهم كما نجت هي؟

بدأت الحركة تهدأ وأخذ الصخب يتحول إلى همسات بين فتيات، لكل واحدة منهن حكاية خاصة بها ورواية مختلفة للأحداث والمستجدات.

استلقت على سريرها وقد تصدع رأسها من ثرثرة رفيقتها في الغرفة، أدارت لها ظهرها متظاهرة بالنوم، أغمضت عينيها على صورته وهو يودعها أمام المبيت منذ أسبوع.

التفتت يمنة ويسرة تبحث عن شخص، عن فكرة، عن مشهد، لم يكن الهدف محدّدا، ها هي ترى نفسها تجري في كل الاتجاهات. رأت نفسها تحتضن فراشات الربيع ثم تتركها مسرعة في اتجاه آخر لتعانق ثلوج الشتاء ثم تعدو لتصافح أوراق الخريف المتساقطة تحت قدميها وفجأة تقرر أن تهرول مسرعة تريد الإمساك بخيوط شمس ساطعة في يوم صيف قائظ. كانت تجري يمينا وشمالا وكأنها تطارد شيئا يهرب منها أو تهرب من خطر يداهمها. توقفت للحظات وهي تلهث. نظرت مليّا، كان هناك على الجانب الآخر، يقف بكل عنفوان يمد يده من بين تلك

اللوحات المتداخلة لفصول السنة المختلفة. لم تفهم هل يمدّ لها يدا يدعوها إليه أم تراه يمد يده دافعا إياها بعيدا عنه!

أخرجها من ذهولها صوت صديقتها في الغرفة: انهضي بسرعة ستفوتنا الحافلة الخاصة بالطلبة.

تطلب منها الأمر لحظات حتى تستوعب أنها كانت تعيش حلما غريبا.

بسرعة اغتسلت ووقفت أمام المرآة وهي تخاطب نفسها: لا بد أن أغير من هيئتي قليلا زيادة في الحيطة.

أسدلت شعرها الطويل وتناولت مقصا وجعلت لها غرة منسدلة على جبينها، لم تجمع بقية شعرها على شكل ذيل حصان بل تركته منسدلًا على كتفيها كخيوط ليل طويل.

جاءها صوته كصدى لترنيمة عذبة: متى ستتحجبين؟ متى تخفين هذا الشعر الساحر عن العيون؟ سؤال طالما طرحه عليها وكانت تتحجج بأنها ستتعرض لمضايقات الحرس الجامعي وستكون محط أنظار البوليس السياسي ولن تستطيع النشاط بحرية.

ترى هل سيعرفونني؟

جاءها صوت رفيقتها ساخرا: لن يعرفك أحد حتى طارق لن يتعرف عليك!

التفتت إليها مبتسمة، ابتسامة هي أقرب للبكاء وقالت: المهم أن يحضر، سأعرفه أنا!

خرجت وهي تحمل أملا ضئيلا جدا بلقائه. تفاجأ الكل بالعدد الكبير من رجال الأمن المدجّجين بالسلاح في محيط الجامعة. لم يكن يُسمح بالدخول دون الاستظهار ببطاقة طالب، أما المحجبات كان عليهن نزع حجابهن وإلا يُمنعن من دخول الحرم الجامعي. مرت من الحاجز بسلام بعد ابتسامة إغراء ألقتها في وجه رجال الأمن. حاولت إبعاد إحساسا بالألم واحتقار لنفسها فقد كان لا بد أن تمرّ وإن كان الثمن بعضا من التنازلات.

وجوه كثيرة غابت عن الساحة واختفت حلقات النقاش، كان الحديث همسا مع شعور بأن الكل مراقَب. تناقل الطلبة الذكور أن أغلب القيادات في مختلف الاتجاهات وقع اعتقالهم في مداهمة ليلية لهم في غرفهم وسط مبنى المبيت. تأكدت أنه كان منهم.

مرّ شهر، تحولت الجامعة إلى ثكنة، وعمّ الشعور بالخوف من كل شيء وأصبح الكل يخشى الكل. إلى أن أعلنت أجهزة الإعلام أن تلك الشرذمة الضالة وقعت محاكمتها واختلفت الأحكام بين الإعدام والمؤبد وسنوات سجن من خمس وعشرين عاما إلى ثلاث سنوات مع إطلاق سراح عدد قليل لعدم ثبوت التهمة.

كانت واقفة في باحة الجامعة عندما سمعت اسمها، التفتت، إنه سالم صديق طارق والذي اعتقل معه منذ أكثر من شهر. كادت ترتمي عليه من فرط فرحتها، دون أن يكلمها ناولها علبة سجائر وأمام نظراتها المتعجبة همس: في داخلها رسالة من طارق.

تماسكت حتى لا تسقط بينما ابتعد سالم في لا مبالاة وكأنه لا يعرفها. دون تفكير ولا خوف أخرجت الرسالة والتهمت حروفها.

بعض الأوجاع تتخطى مرحلة الألم فتصبح قاتلة كجلطة دماغية تدمّر كل الخلايا ولا يتبقى سوى الصمت ملاذا ودواءً.

لم يبق للحزن مساحة لفهم أشياء لم يعد يجدِ فهمها.

أطبقت الدهشة على الجميع من هول الأحداث والظلم المُكمّم للأفواه، تشتت كل التفاصيل فما عادت قادرة على ترتيبها ومنذ تلك اللحظة امتزج الوجود بالعدم.

أشرف العام الدراسي على الانتهاء. غرق الكل في بحر الامتحانات. وغرقت هي في بحر من لأحزان.

أمضت السنتين الباقيتين لها في الجامعة في صمت. أصبحت حساسة، تبكي لأقل ملاحظة. تبتعد عن تجمعات الطلبة. لا تراها إلا منزوية تقرأ في ديوان شعر أو رواية.

عادت في صيف ١٩٨٦ إلى مدينتها مُحملة بذاكرة تأبى النسيان وبشهادة تخرج من كلية الآداب العربية.

مرّت أيام الصيف طويلة مملّة وكان لابد لها من البحث عن وظيفة بسلك التعليم فهو الوظيفة الوحيدة التي تليق بالمرأة، وكانت تعرف أن مثل هذه التعيينات يلزمها تدخل من مسؤول في الوزارة وهي تكاد الأولى التي أتمت تعليمها الجامعي في عائلتها المهتمة بالفلاحة.

جاءتها أمها ذات صباح لتزف لها أن ابن صديقة لها مسؤول مهم في الوزارة وقد وعدتها بأن تكلمه بشأنها. حاولت مجاراة والدتها في فرحتها، ابتسمت وقالت ربي يُيسّر.

لم يطل انتظارهما حتى زارتهم تلك الصديقة لتخبرها أن ابنها سيزورها غدا وعليها تجهيز ملفها وإرفاقه بطلب شغل. أحست أن المرأة تطيل النظر إليها وتتفحصها وكأنها بضاعة معروضة للبيع.

غادرت المرأة بعد أن ألحت عليها بجلب الأوراق اللازمة في الغد حتى تقابل ابنها وتسلمه إياها يدا بيد.

لم ترتح أبدا للأم ولا لابنها ولكنها تحملت مقابلته من أجل الحصول على تعيين في أحد المعاهد.

لم تكن تعلم حينها أن مأساة جديدة ستبدأ مع ذلك الشخص أحست بثقل في رأسها وكأنه ناء بحمل ذلك الكمّ من الذكريات. بحثت عن رسالة من بين حزمة الرسائل وفتحتها:

التاريخ. الرابع عشر من جانفي ١٩٨٧.

ها أنا أتمّ الشهر الخامس منذ تسلمت عملي كمدرسة لغة عربية في أحد معاهد الضاحية الشمالية للعاصمة. أتمنى إلا تكون آخر رسالة أكتبها لأن الغد لن يكون مثل اليوم.

اليوم جهّزوا أمتعتي، غدا سأسكن حضنا آخر. أشعلوا الأضواء في كل مكان إلا قلبي وروحي قد أعلنوا فيهما ظلمة دائمة. فرح الكل ورقص الكل، شعور بموت كل إحساس لدي وكأنهم يرقصون على جثتي. أرى نفسي أسيرة عند قبيلة متوحشّة وقد وضعوني في حلقة تتوسطها نيران ملتهبة وهم يرقصون حولي بانتظار تقديمي قربانا لآلهتهم.

هو جلاد الأمس يعود في صورة أحد زبانيته ليسلب مني حريتي ويسجنني في قفص سمّوه زواجا.

اكتشفت أن ذلك الوسيط جلاد من أعوان أمن الدولة. صرخت لا أريد هذا العمل إذا كان ثمنه الزواج من جلاد ولكن الوقت كان قد فات. فالجلادون لا يتنازلون عن شيء رغبوا فيه. هم من تعودوا على إذلال الغير إن لم يطعهم ويمتثل لأوامرهم ورغباتهم. وهي كانت مجرد رغبة لا بد أن يحققها فهو الجلاد وهو الحاكم وهو من لا تُردّ له كلمة.

كانت الموسيقى كقرع طبول. ضجيج من حولي وضجيج في داخلي وصوت يصرخ:

كيف سأحبه ولا أراك في ملامحه؟

كيف سأحضنه ولا أناديه باسمك؟

كيف سأبتسم وأنا أسمع اسمي بصوت ليس صوتك؟

كيف سأبكي وتكون يد غير يدك من تمسح دموعي؟

كيف سأترك الماضي للماضي؟ وموعدنا وحلمنا كيف أتخلى عنهما؟

هل ألومك أم تلومني؟

كيف أبدأ من جديد وأنا لا أعرف كيف أنهي ما بدأته معك؟

كيف تنهي وهي لم تعِ بعد أنها بدأت؟

هناك نقطة توضع آخر السطر ليبدأ سطر آخر.

وهي تعي جيدا أن هذه النقطة ستنهي كل شيء وستأخذها إلى عالم آخر لا مكان لأحلامها وذكرياتها فيه.

غدا سيكون لي طريق آخر سأسير فيه. هل كان غصبا عني؟ هل كان برغبتي؟ لا يهم ذلك الآن، المهم أنني سأسير فيه وحدي ولن تكون معي فيه.

خبأت رأسها بين يديها وكأنها تهرب من صورة بشعة لمشهد لا تريد.

الاغتصاب هو التعدي على حرمة الجسد. قد يطال العاطفة أيضا.

أن تكون مشاعرك وأحاسيسك الجميلة مكتومة، أن تُغتصب حريتك، اغتصاب بالشرع وبالقانون.

أعادت الرسالة إلى مكانها.

تحاملت على نفسها وهي تردد: الحمد لله أنه كان كابوسًا لم يدم سوى ثلاثة أشهر، عاشت فيهم كوابيس في النوم واليقظة. لم تر فيه يوما إلا جلادا يعذب من تعرف ومن لم تعرف. كان يتفاخر أمامها بأن لا أحد يصمد أمام فنون تعذيبه من الخونة ولا يتركه حتى ينتزع منه ما يريد من اعترافات. كان صوت طارق يصم أذنيها، كلما أغمضت عينيها ترى هذا المُمدّد إلى جانبها وهو يعذبه ويمارس عليه ساديته المقيتة فيتحول وجهه إلى وحش مفترس، منظر يجعلها تقفز من الفراش وهي تصرخ: وحش! وحش. لم يحتمل انهيارها طويلا واعتبرها مجنونة أو على عتبة الجنون.

وبنفس الجبروت والتعنت طلّقها.

عادت إلى غرفة نومها. لن تترك هذه الذكريات تفسد عليها فرحة اللقاء. إحساس يقول لها أنه سيأتي للموعد. لبست جينز أزرق وقميصا بألوان زاهية. بحثت عن حذائها الرياضي طويلا حتى وجدته فهي لم تلبسه منذ أن غادرت الجامعة. ليس موضة هذه الأيام لكن لا بأس وهل تنتمي هي إلى هذه الأيام؟ وضعت على شعرها خمارا أزرق. سيفرح طارق جدا لما يراها محجبة. ستخبره أنها تُضطرّ لنزعه أمام باب المعهد لأن هناك قانون صدر يمنع ارتداء الحجاب داخل أماكن العمل.

أرواحنا كلؤلؤة، هي سرّ من أسرار البحار العميقة، وقد مرت بها لحظات شعرت أنها محارة ملقاة في قعر بحر تنتظر غواصا ينتشلها من وحدتها، من آلامها، من إحباطاتها وانكساراتها.

ولكنها اليوم سترمي الزمن وراءها لتحفر في أرضها القاحلة وتلملم ذاتها وآهاتها المحترقة، ستنتظر غيمة تهطل ماءً عذبا فتغسل الملح عن أرضها، فترتوي بعد سنوات قحط.

ربع قرن وهي تنتظر، بلغة القلب والأحلام انتظرته، بين ألوان الغروب، بين أمواج الشروق، عندما تصدح للحرية أنغام، مع كل شاعر ومع كل ثائر انتظرت هذا اليوم. لوحة حرية وفرحة انتصار. انتصار لخط العدل والحق والإنسان. وكأن الوطن اتحد معها ومع موعدها فخرج كله معها لموعد مع الحرية والكرامة.

ارتدت معطفها الفضفاض ووضعت حزمة الرسائل في حقيبتها اليدوية الملقاة على السرير. فتحت هاتفها المحمول: ياه الساعة العاشرة يجب أن تخرج الآن.

قررت عدم أخذ سيارتها، ستركب القطار، محطة واحدة تفصل بيتها عن مكان الموعد. اخترقت الشارع، تمشي بتأني وكأن الوجود لا يحتوي سواها.

أي جنون هذا؟ هل هناك عاقل يذهب لموعد ضُرب منذ خمسة وعشرين عاما؟

دخلت محطة القطار، كانت شبه خالية إلا من عدد قليل من الشباب يتبادلون آخر أخبار الاحتجاجات، بلغ مسامعها أن الناس بدأت تتوافد وتتجمع في شارع الزعيم في مظاهرة عظيمة.

لم تنتظر طويلا وقررت أن تذهب إلى موعدها سيرا على الأقدام، سيتطلب ذلك ربع ساعة مشيا لا أكثر فكل المرافق توقفت والقطارات لن تشذ عن ذلك.

مشت ومشت.

لم تشعر بطول المسافة وهي تستعيد ذكري آخر لقاء جمعهما في ظروف وأجواء مشحونة وانتفاضة شعب لم يعد يحتمل. عرّجت يمينا في اتجاه البحر التي بدأت رائحته تداعب أنفها فتستشعر معها رهبة اللقاء.

اتخذت مجلسها على الصخرة التي شهدت أحلى ذكرياتها. تذكر أنها قرأت مرة أن الشواطئ فقطهي التي تتغيّر. تتغير أشكالها بتأثير المد والجزر ولكن البحر والصخر يظلان ثابتين لا يتغيران مهما طال الزمان.

أرخت ساقيها، فكرت في خلع حذائها حتى تلامس قدميها مياه البحر كما كانا يفعلان دائما ولكنها تراجعت. نظرت إلى التوقيت في هاتفها: الحادي عشر وخمس وخمسون دقيقة. هل سيكون في الموعد؟ أحست بنبضات قلبها تتسارع، ألقت نظرة على البحر الممتد أمامها واستقرّ بصرها عند التقاء الزرقتين، زرقة البحر وزرقة السماء، تساءلت: ماذا لو انقشع السحاب من حياتي؟ ماذا لو انقشع الظلام عن هذا الوطن؟ ماذا لو أمسك الشمس وأديرها إلى روحي التي فارقها الدفء وعشش في جنباتها صقيع أبدي؟ لم تشعر بالدفء منذ اقتلعوا منها حلمها وافتكوها منه. ماذا لو عادت بنا عقارب الساعة إلى تلك المحطة حيث توقف قطار الزمن فأغير الأحداث وأزوّر التاريخ وألغي كل قوانين الظلم والاستبداد.

فجأة سمعت صوتا من خلفها يترنم بلحن حبيب إلى قلبها. مستقرا في دهاليز الذاكرة المُتعبة.

شايف البحر شو كبير / كبر البحر بحبك ....

شايف السماء شو بعيدي / بعد السماء بحبك.

كبر البحر وبعد السماء بحبك.

هل تصدق ما تسمعه؟ أم إن خيالها يتوهم؟

أحست بيد توضع على كتفها، استدارت وهي تكاد تفقد توازنها، أمسكها حتى لا تسقط، يااه وكأن التاريخ توقف عند ذلك اليوم الذي أمسكها وهي تكاد تسقط رعبا وخوفا من بوليس يطاردهما.

اشتدّ صمت الرمال تحت أقدامهما، واشتد سكون البحر أمامهما. ولم يكن مسموعا سوى نبض قلبين آمنا بأن الحب سينتصر في الأخير وسيجمع بينهما

قربها إليه ثم عنه أبعدها، رأت في عينيه انعكاسا لصورتها ونظرة تقول لها أنا أنتِ وأنتِ مني، تعثّرت وترنّحت ثم تمالكت ليصبح الكون كتلة صوت يردّد معها: أنا أنتَ وأنتَ مني.

وانتفت المسافات بينهما وغابت السنوات ورقصت روحيهما على وقع أمنيات تحققت وأحزان رحلت.

لم تدر كم مضى من الوقت حتى استرجعت توازنها وأخذت تنتبه أنه تغير كثيرا. فلحيته السوداء يتخللها شعر أبيض وأنه فقد الكثير من وزنه ولكن نظرته لم تتغيّر.

قال: لم تتغيري.

أعادت إحكام وضع شالها فوق رأسها وهي تقول: بلى تغيرتُ وأنت أيضا تغيرت.

نظرت إليه والأسئلة تتسابق على شفتيها: كيف؟ ومتى؟ وأين؟

أمسك بيدها في حنوّ وقال تلك قصة طويلة جدا سيكون أمامنا كل العمر لنحكيها.

رنّ هاتفه معلنا ورود رسالة، فتحه بينما فتحت هي حقيبتها وأخرجت حزمة الرسائل ووضعتها بين يديه، قال: ما هذا؟

- تلك قصتي منذ تركتني إلى اليوم.
- ذلك قوس فتح في حياتنا غصبا عنا واليوم نحن من سنغلقه بإرادتنا.

ودون تفكير سلمها جزءً من الرسائل وفي حركة سريعة ألقى بما أبقاه عنده بعيدا وسط المياه وأشار إليها إن تفعل مثله، دون تفكير رمت ما لديها من أوراق في الماء وسرعان ما ابتلعها وغاصت إلى قاع البحر.

أمسكها من يدها وهمس لها في أذنها:

- حب عمري تعالي ننسى كل ما مرّ علينا، تعالي نولد مع ميلاد الحرية في هذا الوطن!

هيا نلتحق بالمتظاهرين أمام وزارة الداخلية والمطالبين برحيل ذلك المجرم السفاح.

بعد نصف ساعة من السير على الأقدام استطاعا أن يلتحما بالمتظاهرين بعد إن تسلما من أحدهم لافتة كتب عليها شعار التظاهرة (ارحل).

وكأنهما لم يفترقا، وكأن الأحداث تتكرر في شكل جديد وفضاء جديد لتجد نفسها معه كما حدث منذ خمسة وعشرين عاما وسط مظاهرة ضد الظلم والظلُام وقد تغيّر الظالم ولكن الظلم لم يتغير.

مالت عليه وهمست وسط صراخ المتظاهرين قائلة:

وكأننا اتحدنا ذلك اليوم تحت ذلك القبو، فاشتعل الضوء فينا وظلّ لعقود ولم ينطفئ، كلانا مضى نحو آخر أحلامه منفردا. ثم بعد دهر، بعد

عمر، بعد و بعد وبعد نلتقي، وكأن كلانا تخلّص من ماضيه، من لياليه، من كل أحزانه وبؤسه، من كل المسافات التي كانت تفصلنا ولم يبق فينا سوى ذاك الذي اشتعل يوما ووحدّ بين مصيرنا ومصير هذا الوطن، ألسنا جزءا من هذا الوطن؟.

مغازل الشتاء

بقلم.. مال الشام الحداد / سوريا

دودتي.. أهذه أنتِ؟

أين أنا؟ وما هذا الشيء الملتصق بجسدي؟

ما الذي فعلته دودتي بي؟

ما الذي فعلته لها حتى استحققت هذا العقاب؟

مرت الأيام ونحن معًا، أن تفارقني فكرة بدت شبه مستحيلة.

كيف لي أن ابتعد عن صديقتي الأولى وقد بادلتني بالحب الذي لا يَحظى به أي بشري في هذه الحياة؟

تقدمت نحوي من بين أوراق شجرتها وقالت:

"هل لي في أن..."

احمرت وجنتاها خجلًا، ابتسمتُ لها وحثثتها على الكلام

"اطلبي ما تريدين"

شقت وجنتيها ابتسامةٌ بسيطة وتابعت:

"جاء الشتاء والمكان بارد، هل...."

عادت لصمتها لأعود وأحثها على الكلام، استرسلت بخجل: هل يمكنني أن اسكن في معدتكِ إلى أن ينتهي الشتاء فقط؟

ضحكتُ ساخرة، كل هذا الخجل من أجل طلب بسيط؟

"بالطبع تستطيعين"

أجبتها بسرور لأشعر بها تخترق جلدي وتمشي في دمي إلى أن استقرت في معدتي، ها قد أصبحت جزءًا لا يتجزأ من كياني.

همستُ مرحبة:

"أهلًا بك"

جاء الشتاء وما يحمله من زمهرير قارس.

لحسن الحظ أن دودتي فكرت في الأمر مسبقًا وإلا لكانت الأن ميتة

هي معي ولن تبتعد عني وهذا يريحني فهي تفهمني أكثر من فتيات الحي الخرقاوات، أولئك المتحذلقات لا يصدقن بأنني أتكلم مع دودة تسكن داخل معدتي، لست بحاجة إليهن هنّ لا يردنني وأنا كذلك... دودتي تكفيني

استلقيت على السرير محاولة الاسترخاء، سألتني بخجل مجددًا.

"ملاك، هل لي بطلب من فضلك؟"

"-صديقتي أطلبي ما تريدين دون تردد أو دعيني أقول خذي ما تريدين دون طلب"

أجبتها بثقة لتجيب بدهشة:

"أجل حقا"

"أنا أريد فقط بضع شعيرات من شعرك لأصنع لنفسي وشاح يدفئني"

همهمت أفكر، هو غالي علي كثيرًا ولكن لا شيء أغلى من دودتي، ثم هي ستأخذ بضع شعيرات فقط.

ابتسمت وأومأت بالإيجاب.

مرت الأيام على طلبها الأخير وشيءٌ غريبٌ أصبح يحدث لي.

أرى خصل شعري تسقط في الحمام أو عالقة على الفرشاة خصل شعري في كل مكان إلا على رأسي!

أهذا بسبب دودتي يا ترى؟

وقفت أمام المرآة لأغسل وجهي ويا للهول ما رأيت، تراجعت خطوتين للوراء بصدمة، أهذه أنا؟ أين شعري هذا مستحيل.. أنا صلعاء!!

تسارعت العبرات بالسباق نحو مقلتي وركضت باتجاه أمي أشكو لها:

" أمي !! انظري إليَّ أنا قبيحة"

نظرت لرأسي وهمست بضعف:

"لا أنتِ لستِ كذلك انظري جيدًا"

قربت من وجهي خصلة شعر يتيمة توسطت مؤخرة رأسي، نظرت لتلك الشعيرات البنية بحسرة، أين ذهب باقي شعري؟

عاودت أمي الكلام بصوت أكثر ضعفًا ووهنًا:

"حبيبتي لا تحزني هيا سأمشطهم لك"

مشطت لي خصلة شعري وربطته بربطة وردية

ثم ابتسمت بحب:

"تبدين جميلة"

ولكن ما الأمر؟ ألا تستطيع أمي أن ترى أني صلعاء؟

ربما هي تواسيني فقط!

سألت نفسي:

"هل أمي تحبني أكثر أم دودتي؟"

أجابتني دودتي بصوت جاء من داخل معدتي وقالت:

"لا أحد يحبك بحجم حبي لك فأنا سأبقى معك حتى الموت"

حقًا! أعلم أنه من يقول لشخص أنه سيبقى معه للموت يقصد أنه يحبه بجنون، ضحكت بفرح فما بين يدي كنزٌ لا يقدر بثمن ألا وهو الحبّ!

ولكن....

هل الحياة كأفلام ديزني؟

حياتنا ليست كالجميلة النائمة أو فلة والأقزام!

لماذا تكون نهايات قصصنا غير واضحة على عكس النهايات الغجرية لقصص الأطفال؟

للآسف فرحتي لم تتم، عينا أمي دائما تلمعان... هي تبكي ولا تريدني أن أراها ولكنني... أراها.

كانت جالسة بمفردها حاملة في يدها صورة قديمة لي وعبراتها تحرق وجنتيها الزهريتين كما لو أنها أضاعت شيئًا غاليًا عليها

اقتربتُ منها بهدوء ووضعت يدي على كتفها الضعيف وسألتها:

"لماذا تبكين؟"

أدارت وجهها إليَّ بسرعة، صاحت متفاجئة بينما أخفت الصورة في جيب بنطالها:

" ها!، أنتِ هنا لم أكن أعر... أقصد... على العموم أنا لا أبكي هناك شيء دخل لعيني"

مسحت عبراتها ثم أمسكت بالفرشاة وأردفت مع ابتسامة بسيطة:

"اقتربي لأمشط لك شعرك فاليوم سآخذك لمكان جميل"

"إلى أين؟"

"عندما نصل ستعرفين"

مشطت لي شعيراتي وغطت رأسي بقبعة وردية مزركشة بأزهار بيضاء

أمسكت بيدي وذهبنا معًا.

دخلتُ إلى المكان... غرفةٌ مظلمةٌ كمغارة الغول

لا أحد فيها سوى أنا وأمي ودودتي.

ومن بين الظلام السوداء تقدم شبحٌ أبيض... أهذا طبيب؟ ركضت نحو حضن أمي وتوسلت برعشة:

"أ .أرجوكـ.. لـ لنذهب إلى البيت"

إلا أنه أسرع مني.... غدرني بإبرة نهشت جسدي بأكمله وأفقدتني الوعي وصوت صراخ جاء من معدتي... دودتي !! إنها تتألم وتتآكل وتتقلص.. ثم اسودّ كلّ شيء

"أمي أين أنتِ؟ أين أنا؟ لا أرى شيئًا"

همست لي دودتي بألم:

"نامي"

خرجتُ من الغرفة والتي تسمى (العلاج الكيماوي) وعدت مع أمي للمنزل أبكي

مسحت عبراتي وقلت بصرامة:

" في المرة المقبلة لن أذهب إلى ذلك المكان أبدًا"

أخذت نفسًا عميقًا لأمسك ما تبقى من طاقتي وهمست:

"أمي أنا... انا أريد أن أنام... ولن أستيقـ.."

لـم أسـتطع إكمـال جملتـي إثـر ضـمة خانقـة بـاغتتني مـن ذراعـي أمـي النحيلتين

صاحت بغضب مشرب بحزن عميق:

"اصمتي...اصـمتي.. لا تقولي هذا فأنتِ ستستيقظين وسـأعود لأمشط شعرك المخملي من جديد"

انهمـرت بالبكـاء رفعت حـاجبي مسـتغربة، حـائرة، أهـي تبكـي بسـببي، ربت على كتفها وتلعثمت مبررة:

" أمي ما بالكِ؟ أنا أقصد هل أنتِ بخير؟ لا تقلقي أنا فقط سأنام لساعات طويلـة ولـن استيقظ حتـى وإن جعلتِ إخـوتي يزعجـونني، سـأنام ولكـن سأستيقظ غدًا... أعدك"

ابتعدت عني وأحكمت إمساكها لوجنتي الشاحبتين ثم سألتني بطفولية:

"أتعديني؟"

"أجل"

استلقيت على سريري أفكر، صـورتي فـي يدها أولا والآن بكت من لا شيء أهو شيءٌ في جفنها حقًا أم أنا هي السبب؟

كيف أكون سبب تعاسة شخص أحبه؟ كيف أذيها وأنا لا أشعر بذلك؟

وضعت يدي على معدتي لأقاوم الألم.

ترى هل دودتي تشعر بالألم الذي أشعر به الآن؟

شيءٌ غريبٌ يحدث كلما كبرت دودتي أكثر زاد ألمي أكثر وأكثر.

تجاهلت آلمي وفكرت بأمي.

أمي تبكي، هي تبكي وإن قالت لي عكس ذلك.

قالت دودتي ساخرة:

"أنت ساذجة يا فتاة فأمك تبكي لوجودي"

قهقهت مستهزئة فهذا مستحيل أمي تحبني وتحب من يحبني همتْ لتجيبني ولكن قاطعها صوت أمي:

"ملاك حبيبتي صنعتُ لك الحلوى"

قفزتُ للمطبخ لأراها، رغم وجهها الشاحب وعينيها الحمراوين ابتسمت لي ووضعت أمامي صحن مليء بقطع الحلوى الشهية، قلت بخجل:

"شكرا"

أومأت إيجابًا دون أن تنطق ببنت شفة وشرعت بغسيل الأطباق.

ما إن دخلت رائحة الحلوى لأنفي حتى نسيت تعبي همست لي دودتي:

"لا تأكلي"

تجاهلتها، مستحيل إنها الحلوى المفضلة لديّ.

أمسكت بقطعة وتناولتها بشراهة، واحدة تلو الأخرى إلى أن سمعتها تصرخ:

"اخرجوه... لا أريده"

صوتها كالفحيح، بدت غاضبة ولا تريدني أن أكسر كلامها.

أسرعت بالذهاب للحمام وتقيأتُ عجينة سكر ممزوجة بدم أحمر

هل هذا دمي؟

رفعت رأسي عن المرحاض بصدمة لألمحها تختلس النظر إليَّ وقدميها ترتجفان ضعفًا.

غمرت وجهها براحة كفيها وركضت مبتعدة عني، ناديتها بوهن:

"أمي"

ولكنها لم تجب!

وقفت أمام المرآة، لأغسل وجهي.

ملامح وجهي لم تعد كما كانت عليه، أصبحت شاحبة ومختلفة، زحت القبعة عن رأسي ببطء وتأملت نفسي.

لا شعر لدي، أتقّيأ دماء، جسدي ضعيف، وجهي شاحب ماذا يحدث معي بحق الجحيم؟

عدت لغرفتي مرهقة، استلقيت على سريري لأسمعها تتابع حديثنا القديم:

" هي تغار لأنني قريبة منكِ وسأخطفك منها"

تنهدتُ بتعب وسألتها:

"إلى أين؟"

ابتسمت بخبث وقالت:

"إلى مكان جميل"

"وكيف عرفتِ ذلك؟"

" لأنني أعرف ذلك المكان جيدًا... فلقد جئت منه"

شهقت بتعب متخبط بلمسة سرور:

" حقًا!! هذا جميل... أنا موافقة طبعًا"

موافقة؟ أجل موافقة فعندما توافق على شيء يصبح كلُّ شيء جميلًا، أليس كذلك؟

ربما ولكن ليس معي.

آخر مكان ذهبت إليه كان منذ أسابيع، حجرة ذلك الغول المقزز منذ ذلك اليوم وأنا طريحة الفراش لا حول لي ولا قوة.

لا أحد يواسيني بوحدتي لا أحد بجانبي سواها... دودتي والتي لم تعد كما كانت عليه.

وضعت يدي على معدتي من شدة الألم وهمست مستنجدة:

"أرجوك توقفي"

ولكن لا حياة لمن تنادي، تجاهلتني واستمرت في الحفر داخل أحشائي دون مبالة للألم الذي تسببه لي.

تحفر وتنسج شيئًا ما والألم لا يُحتمل.

جحظت عيناي وصرخت بحرقة:

"توقفي"

هدأ كل شيء بداخلي وأخيرًا، توقفت عن الحراك.

عشت برهة واحدة من الراحة والسكون قبل أن تمزقها صوت قهقهتها والتي تحدثت بلهجة أمر أكثر مما تعودت عليه:

"اصمتي يا فتاة"

ماذا قالت للتو؟ يا فتاة! ألم أكن صديقتها؟

"أنتِ تعيشين في معدتي وأنا أرفض استمرارك بالشيء الذي تفعلينه الآن ثم كيف تفعلينه دون الأخذ بالإذن حتى؟"

نهشت في معدتي أكثر، تكورت حول نفسي وقد دمعت عيناي بعبرات مالحة أحرقت وجنتي.

"أستأذن منك؟ ويحك ما الذي تقولينه يا فتاة؟"

هل هذه حقًا دودتي أم أنها دودة أخرى احتلتني وقتلت صديقتي؟

أجابت بسخرية:

"حمقاء أيعقل أنك لم تفهمي شيئًا بعد؟ أيعقل أنك لم تفهمي أنني السبب في كل ما يحدث معك؟"

توقفت لتأخذ نفسًا تتبعه صوت ضحكة خافتة واسترسلت بخبث:

"أنا السبب في إسقاط شعرك، وفي تقيئك الدماء، في تعبك، وفي شحوب وجهك، في ألم معدتك، وكل شيء، أنا السبب"

وغدة، تعترف بذنبها دون ندم، تعترف ومع كل اعتراف تغرس ذيلها الحاد بداخلي أكثر لتزيد ألمي أكثر فأكثر.

مسحتُ عبراتي بسرعة وصرخت بحزم:

اخرجي، اخرجي من داخلي وحالًا"

حل الصمت من جديد ها هي برهة سكون أخرى اقتحمتها صوت قهقهتها الساخرة..

"وهل حقًا سأخرج إن طلبتِ مني ذلك؟"

"ويحكِ كنت تحمرين خجلًا مع كل طلب تطلبينه مني ما الذي غيرك الآن؟"

إلا أنها لم تجب، تكورت حول نفسي وقد دمعت عيناي وأنا أئن بصمت.

ها قد بدأ الثلج بالهطول، ابتسمت دودتي بشر فقد اجتمع الحلفاء، هي تؤلم من الداخل والثلج يسترها من الخارج ويدخل بردًا ينخر العظام دون رحمة

رياحٌ قويةٌ في الخارج أحدثت صوتًا مخيفًا بارتطامها بزجاج النافذة

همستُ راجية:

"أرجوك كفى"

أجابت طلبي بتكلف وكأنها هي صاحبة هذا الجسم البالي:

"لا يمكنني التوقف فأنا في منتصف الطريق"

"منتصف الطريق؟ إلى أين ستذهب بي؟"

"إلى الجحيم"

الجحيم؟ ولكن ماذا سيحدث لي هناك؟ ماذا سيحدث للأشخاص الذين يحبونني؟ لأمي؟

أين أمي؟ لم أعد أراها، عبراتها أصبحت أقرب إليها مني.

يبدو أنني سأغادر دون أن أودع أحد.

ضحكت بشدة لدرجة أنني أحسست بدموع ضحكها يختلط مع دمي:

"من يهتم لوداعك؟ أنت بشعة ضعيفة خرقاء وميتة"

أأنا بشعة؟ ضعيفة؟ خرقاء؟ ميتة؟

هجمت الرياح على غرفتي وفتحت النوافذ على مصراعيها سامحة للزمهرير بالدخول على سجادة حمراء مطرزة بخيوط من ذهب

ها قد جاء الدعم لها، احتل البرد غرفتي وهي بداخلي مازالت تحفر وتنسج وأنا مكورة على نفسي.

هل سأموت؟

ألم، برد، وحدة، وما زلتُ أقاوم!

وما زلتُ أسأل نفسي هل سأموت؟

أصبحت رؤيتي مشوشة شيء ما يلتف حولي غيمة سوداء تستعمرني غطت كل شيء واختفى كل شيء.

فتحت عيني بتعب أين أنا وماذا أفعل هنا؟

رائحة مشفى! صوت بكاء! ولكنني لا أرى شيئًا من كل ذلك.

لم أستطع تحريك جسدي، أنا لست في السرير.

بعثرت أنظاري حول المكان هناك فتيات كثيرات غيري.

تقلصت معدتي وانقلبت فشعرت بألم لا يحتمل، أنزلت عيناي للأسفل، لأراها مفتوحة ويخرج منها مغازل، خيوطٌ تحاك حولي، منبثقة مني لتسجنني.

ارتجف قلبي إذًا هذا ما كانت دودتي تفعله داخلي.

تحفر في معدتي لتخرج مغزلها المصنوع من شعري.

إنها تجعلني أقتل نفسي!

حدقت بفتاة خرجت خيوطها من رأسها سألتها بوهن:

"أهي دودة؟"

ابتسمت بتعب وأجابت:

"ستغدين فراشة جميلة بعد أن يلتف جسدك بالكفن الحريري"

أقشعر بدني ووقف شعر جسمي سأقتل نفسي بمغزل صُنِعَ مني في شتاء حمل مع رياحه البرد والخيانة والخوف!

سأموت وسأراقب نهايتي بصمت.

فوضى

بقلم.. طيبي وفاء دليلة /الجزائر

"أدركت في عمر متأخر جدا، أن أعاصير الندم و الجزع – الغير المبكرين - التي عصفت بوجهي و سكنت وديان تجاعيدي، لم تكن إلا ردة فعل لرفرفة جناحي بتلك الطريقة المتمردة **"**

- نظرية الفوضى بمنظور أدبي -

جلست على حافة عمري الذي تجاوز العقد السابع، أتبادل الأحاديث أنا ووحدتي الأبدية، نظرت حولي لعلي أستطيع معرفة ما أنا به، وحدة سرمدية وسط أشخاص غيري، أم أنها كانت أنا من باقي الأزمان تحيطني كما تحيطني غمامة التعاسة الأزلية.

دنت يدي لأحصل على نظاراتي، رفقائي منذ ما يتجاوز العقد الواحد فتبينت لي ملامح الغرفة ذات الألوان المتباينة ما بين الأبيض والكريستالي كما ستتبين لك ملامحي المتباينة بين الحزن والاكتئاب والشرود...!

سأقف أمام المرآة وستسمعني أعذل نفسي بأقسى ما أملك رغم أنني ما عدت أملك سوى حروفي وقدح شاي لكن حري بك إغلاق أذنيك فللحروف ضجة عظيمة أو لعلي سأكتم حروفي فقط.

وهل تكتم الحروف؟

منذ بلغت الأربعين وأنا أراقص مراحل الحزن الخمسة كمراهقة تتعلم أولى خطوات الرقص الشرقي، لكنها معي لا تتجاوز الأربعة، إنكار فغضب فمساومة فاكتئاب، متعثرة لا أدرك هل توقفت الموسيقى أم أنه لم يعد لدي سيقان. وبقيت واقفة عند محطة الاكتئاب الأخيرة وقتا طويلا حتى أنني فقدت العد بعد أن بلغت الخامسة والخمسين!

شال أسود و فستان أسود يطوقانني وما أذكرني ارتديت غير السواد كحداد على روحي التي لاقت حتفها وأنا لم أبلغ الخمسين، رجفة شفاه ورعشة على طول عمودي الفقري المتقوس نتيجة عجزي، صرخة دوت فكان منطلقها أغمق أعماق روحي المتوفاة، ثم انسدلت تجاعيد جفنا عيناي معلنة عن انغلاقهما كاتمة بذلك صرختي المدوية وعذابي الأليم، مسدت يدي على بقايا شعري الذي احتله الشيب كما تحتل اللذعة جسدي، ألقيت نظرة أخيرة على تفاصيل تجاعيد يدي والتي شكلت وديانًا عند التقائها، تلك التفاصيل التي توحي لي أن ما تبقى مني تملص من جسدي ليحضر جنازة روحي الراحلة مسببا انكماشي بهذه الطريقة.

وحدها تلك الطاولة الزجاجية التي تتمركز وسط هذه الغرفة هي ما شد ناظري واستحوذ على تفكيري، فانحنيت نحوها زيادة على انحناء عظامي العاجزة ثم عدت فابتسمت كما لم ابتسم منذ أن بلغت العشرين، لتظهر أسناني الأمامية وهي ما تبقى لي والتي لا أجد لبقائها باعثا وهناك شعرت أن القبر يناديني وأنا لم أنتهي بعد!

عـدت لقبـر روحـي أتلحـف الماضـي وأتوسـد المسـتقبل كـأني أطلـق رصاصة أفكاري نحوه تماما، نمت تلك الليلـة بعد أن أنهيت صـرخاتي وابتساماتي، بعد أن نفذت دموعي وأعدمت روحي، نمت بعد أن أنهيت قدح الشاي البارد. كان يوما شاقا ومتعبا أنهك شظايا روحي العالقة بين عظـامي العـاجزة، ثـم انسـدل السـتار وصـمتت الصـرخة، انطلـق عبـق أفكـاري المتنـاثرة وانتشـر رمـاد عظـامي المتهالكـة وهـذا ثمـن إدراكـي المتأخر جدا، أن أعاصير الندم والجزع -غير المبكرين- التـي عصـفت بوجهي وسكنت وديان تجاعيدي، لـم تكن إلا ردة فعل لرفرفـة جنـاحي بتلك الطريقة المتمردة، وكانت هذه النهاية!

.....

لا زلت واقفة أمام المرآة وأنـا أراقب شظايا روحـي تشتعل، وذكريـات الماضي تراقص ذاكرتي، عن بعد كنت أتخيل تلك الذكريات كفتاة تعاني انفصاما إلا أن الجزء بعضها تعانقني عناقا دافئـا والـبعض الآخـر يحـرم النعاس عن جفوني حين أفكر بها!

اعتدت التجاعيد علـى حرمـة وجهـي فشـوهته جاعلـة إيـاه وإيـاي فرجـة لأشخاص ما جربوا ألمـي يومـا، قبل ثـلاث عقود أو أربـع لـم تكن هذه التجاعيد ملكي ولا أنا هذه العاجزة، كنت فتاة صارخة الأنوثة وكـم كـان صـعبا التخلـي عـن تلـك الملامـح بعد أن عِشت تحت كنفهـا مـا يتجـاوز عقودا ثلاثًا! وكم كنت أقسو على تلك الأنوثة، لا زلت أذكر كيف كنت أهرب من المدرسـة وأنـا بعمـر الخامسـة عشـر لأستنشـق سيجارتي ثـم أعود إلى المنـزل وكـأن شيئا لـم يكن، بعد شـرائي لقطعـة حلـوى بـذوق النعناع، كانت أمي كل مرة تستقبلني بتلـك الملامـح المنهمكـة وذراعهـا اليمنى تتوسط خصرها لتقول " يا آنسة هل كنت تدخنين " وكنـت أعلـم

أن هذا السؤال موجه لتختبر صدقي فكنت أضحك ثم أعانقها مركزة على طبع قبلة على خدها الأيسر قائلة "بل أصادق مدخنا! " وما كان ذاك الصديق إلا أنا، آنذاك كنت شديدة الدناءة، كثيرة الكذب لكنني كنت أجيد الاختفاء تحت رداء لم أكن إياه فكنت أتلحف الالتزام والبراءة والرقي الشديد.

تجربتي الأولى لشرب الكحول كانت قبل بلوغي السابعة عشر ببضع أشهر ولو أنني كنت أدري أن النتيجة ستكون ما أنا عليه لما دخلت ذلك المتجر أبدا! وللأمانة ما كانت نيتي تكمن في شراء الكحول بل ولجت بهدف شراء بعض السجائر التي كنت أنفث من خلالها لوعة روحي.

السجائر التي كانت تُشعرني بهدف وجودي، أنا هنا لأناضل ولكنني أحتاج سببا للنضال، دنوت من الرفوف وحملت علبة سجائر كنت أنوي أن أنتهي منها يومها أو ربما كنت لأتقاسمها مع شخص جرحه الزمان جرحا عميقا، فأجلس أنا وإياه تحت ظل إحدى البنايات ثم يشكي لي الزمان وأشكي له كثرة الدلال وأخيرا انْفض فستاني الراقي وأعدل شعري وأبلع قطعة الحلوى ذات ذوق النعناع وأغادر بأكبر ابتسامة رضا على وجهي، ابتسامة ناعمة رقيقة تصرخ بالدلال كأنني لم أكن أصارع الأدخنة توا ولم يهزمني جرح من كنت أشاركه الجلوس.

لكن يومها خرقت كل طقوسي وخلقت طقوسا جديدة بسببه، فما إن وقفت أمام طاولة المحاسبة بل ما إن وقفت أمامه قال "أنثى مثلك تدخل متجري وتشتري مجرد سجائر! أمر مستحيل " ثم صمت قليلا ولم يقطع نظراته الجريئة نحوي وأردف "جربي شيئا أكبر" كانت بحته عاطفية وأُسلوب حديثه معتدلا، رائحته الرجولية تداعب جيوبي الأنفية لأشعر كأن الأكسجين حينها أصبح ذاك العطر، ولربما كان نوعي المفضل

حينها وما أن أنهى كلماته ضحكت بكل قوتي وركزت على أن تكون ضحكة رنانة فتعلق في عقله أبدا، تضج بالنعومة وكما فتنت ببحته كان عليه أن يفتن بضحكتي، هكذا كانت المعادلة شديدة البساطة كثيرة التفاصيل وهكذا تذوقت أول جرعة من شراب الحب، بعد أن أنهيت ضحكتي هززت رأسي بدلال ونظرت صوب عيناه بتحدٍ قائلة "هل أعتبر الأمر دعاية لهذا المتجر؟!" فلمعت عيناه بطريقة صهرت روحي وأعادت تشكيها كما أراد هو وأجابني ببحته الرجولية واللمعة لا تفارق عيناه "على حسابي!"

وانتهى الحوار بي أخرج من ذلك المتجر إلى جانبه وبيدي كيس يحمل زجاجة شراب رخيص وعلبة سجائر، تلك الأنا كانت مختلفة عن بقية شخصياتي الظاهرة، فتاة بفستان يظهر ثمنه الغال من طريقة تطريزه لا تحمل معها أبدا قارورة شراب كهذه أقل ما قد تحمله نبيذ أحمر عتيق، ولدت وبيدي كل شيء وها أنا ذي سأموت وما بيدي شيء والآن بدأت بالتساؤل ما أنا في ظل وجود كل شيء وماذا أصبحت بعد أن اختفى كل شيء!

احتسيت تلك القارورة بتحد واضح وأنا أحتوي عيناه التي كانت تحدق بي بغرابة، وانكمشت ملامحي حينها من شدة مرارة وحموضة المشروب ولا أظن أن أحشائي أو معدتي استحسنت ذوقه لأجدني أبصقه أرضا سرعان ما لامس أرضية معدتي، فابتسم وعيناه تأبى مفارقتي ثم قال حينها "ملامحك هذه... لذيذة حقا!" فخفق قلبي وارتجفت ملامحي، ارتعشت كبريائي وابتسمت بخجل.

كنت حائرة يومها واقفة بتردد أمام آلاف الأفكار التي لا أجد لها حلا كنت أطلب النضال وحضرتني أسباب النضال مجتمعة معا لينتشلني الحب هامسا ببحة صوته من كل الأفكار فغادرتها وغادرتني ووقفت أمام الحب عارية الأفكار عزلاء من كل سلاح إلا دقات قلبي الحادة وطلقات الغزل الحر من بين شفاهي.

زادت اللقاءات بيننا ورسخ الحب بداخلي فعلمني ما لم يعلمه لي أحد قط! علمني آداب الحديث في حرمة حضور الحب وعلمني أن الوردة المقطوفة صباحا - والتي لم تعني لي شيئا قبل لقائه - هي بمثابة مقابلة للآلهة آفروديت ربة الحب والجمال، فتفرعت بداخلي أغصان الحب مع كل لقاء جمعنا وكل عناق وحدنا، وكان يشير لي بسبابته نحو طائر بلغ الأفق بتحليقه ويقول" كنت أتمنى أن أكون مثله دوما" ثم يصمت وهو يشير نحو طفل يسرق قطعة حلوى من متجره ويردف " والآن أتمنى أن أكون مثله وأسرقك! " لأبتسم قليلا ثم أجيب"اسرقني... إذا! " فيهز رأسه ويجيبني بصوت تعب وبحة مجروحة قائلا "دلالك مشكلة عويصة جدا! وأيضا والداك لن يوافقا على سرقتي إياك"، عقدت حاجباي ورددت "ستوافق آلهة الحب على الأقل" ضحك وقتها بقوة ونبتت أولى زهور الحب داخلي ليقول بعدها "ما زلت تؤمنين بها.... أعني آلهة الحب" لحظتها عدلت جلستي ومسحت على الأرض بكفي الأيسر ثم قمت ونفضت فستاني وقلت بصوت بلغه الجرح الأقسى "بل أؤمن بك"

كان يكبرني بعشر سنين وحين لقائنا لا أذكر هل كنت أنا من تسلق سلم العمر بسرعة لأبلغ السادسة وعشرين وأنا لا أتجاوز السادسة عشر أم أنه كان من تواضع وتراجع عشر سنين كل ما أذكره أننا تساوينا عمرا وحبا.

بعد انتهاء الشهور القلة لأبلغ السابعة بعد العقد الأول كنت قد ناقشت أمي في إمكانية إقامتي لحفلة أدعو فيها كل أصدقائي ووافقت لكنها لو علمت ما كنت أريد فعلا لما وافقت أبدا! لهذا اليوم لا زلت لا أدري هل كانت حفلة لبلوغي السابعة العشر أم أنها كانت جنازة لسنواتي الستة عشر المنقضية لكني متأكدة أنني يومها كنت جاهزة لأقدمني لعريس روحي وليد قلبي.

أمي لم تعلم أبدا أن هذه هي الهدية الوحيدة التي أردتها أما أنا فحرصت تلك الليلة على ارتداء أجمل فستان مع قليل من الحلي البسيطة كنت أزينني وأتمنى أن تزين زينتي وليد قلبي في أعين والداي، آه كم أن الحب مكلف ومتعب حقا!

أذكر تلك الليلة كما يذكر السجين المحرر جدران سجنه وثقل قيوده وعبء عقباته، كنت ليلتها أساعد أمي في وضع اللمسات الأخيرة على الأكل قبل أن أحمل صينية المشروبات وأقدمها للحاضرين وحين وصلت إليه وضعت الصينية جانبا ووقفت على أطراف أصابعي كي أزيد من طولي لأساويه ثم همست في أذنه وأنا أحاول تجاهل دقات قلبي التي تزداد بقربي منه "تلك حماتك، تصرف جيدا" وغادرت، أنثى مثلي لا تستدير أبدا حتى لو كان من أجل أن ترى ما يحصل خلفها لكن في تلك اللحظة تمنيت لو استدرت لأرى ملامحه وما إن صارحت أمي بما أريد، تعالت الصرخات ولم يبقى سواي بملامحي المتوسلة وهو بكبريائه المكسور ووالداي بملامحهما الغريبة والغاضبة، أُخرس لساني ونفدت حروفي وكنت أنظر نحوهما بنظرة مجروحة وزاد ألمي وتفاقم الجرح حين انسحب بعد أن انجرحت بقايا كبريائه ومزقت قطعا صغيرة أمامي ورجل مثله كبريائه هي درعه ورجولته أمام المرأة التي يحب!

وتحولت فجأة من ليلة بلوغي السابعة بعد العقد الأول إلى ليلة أضرمت فها النار بداخلي ورميت بعيدا وبدل الاحتفال بجنازة ستة عشر سنة انقضت، أصبحت جنازة لا احتفال فيها جنازة فتاة كانت ولم تعد!

وبالرغم من أن زهرة حب والداي نشأت وهما بعمر السابعة عشر وولدت أنا وكلاهما لا يتجاوز الثامنة عشر إلا بقليل إلا أنهم كانوا يصرخون يومها أن زواجهم المبكر جرم وخطأ لا يودون مني ارتكابه وحينها تبادر لذهني أنني خطأ لم يتمنوا حضوره ولا يريدون تكملته فينطلق الرصاص والخناجر مستهدفين قلبي فيصرخ وأصرخ معه! ويستنجد وأُنجده واستنجد ولا أجد من ينجدني.

صرخ والدي يومها وقد برزت عروق رقبته واحمرت عيونه "لو خرجتِ لرؤيته مجددا.. لا أنت ابنتي ولا أنا والدك" كان جرح مشاعري يطغى على تهديده فحملت ما استطعت حمله ورميت ذكرياتي وغادرت نحوه.

دخلت محله بعد أن تبللت بالكامل من شعري لأخمص قدماي وتبللت عروقي وقلبي، يومها شعرت أن أمطار مدينتي تقيم العزاء بدلا من والداي ووقفت أمامه بعد أن ذابت زينتي كما ذابت ذكرياتي وكما تذوب ملامحي الآن!

وقلت يومها بعد أن استنزفت كل دموعي"فلنتزوج!" حدق بشكلي وطغت الابتسامة وجهه ثم اقترب مني وقال "بهذا الشكل؟! لا شكرًا "وضحكنا لحظتها كثيرا كما لو كانت حياتنا تعتمد على هذه الضحكة.

يوم زفافي كان نهارا شديد الأمطار ولم يحضر زفافنا سوى الحب والأمل وكانا كلاهما لنا، ولربما لم أحب كون زفافي لم يحضره أحد أو شيء سوى مشاعرنا، أو أنني أحببته ولكنني كنت أخشى الاعتراف، فكيف اعترف وأنا من كنت أحلم بأضخم زفاف عرفته المدينة تزينه الورود من كل الأنواع ويسلمني والدي لعريسي كما يسلمني عريسي قلبه!

لربما اهترأت تلك الساعة الكلاسيكية داخلي، الساعة التي كانت تعد عدا تنازليا حتى موعد قدوم فارس أحلامي لكنني لم أدرك الأمر لأنني كنت متأكدة أن فارسي قد جاء بالفعل!

لم أكن متأكدة لحظتها أن كان الرقص تحت المطر وبدون موسيقى أمرا منطقيا أو واقعيا حتى لكن بداخلي كنت أصرخ أن الأمر صحيح تماما وأن هذا أكثر مما تمنيت ومما أريد، وما إن انتهت رقصتنا التي كنّا نحلق من خلالها اقترب مني وقبل جبيني قبلة دافئة عبر من خلالها عن كل مشاعره ثم لمعت عيناه وابتسم فزادت وسامته وضمني إلى صدره أخيرا فعدت لموطني بين ضلوعه، ما شعرت به في تلك اللحظة كان عبارة عن رجفة قلب سريعة شعرت بها حين أحاطني وما إن ابتعد حتى عادت موسيقى قلبي لطبيعتها وفي ذلك الوقت تماما ارتعشت أطرافي وتراقصت نظراتي عقدت حاجباي ثم أعدت تسريحهما واستغرق مني الأمر أربع دقائق قبل أن أستطيع النظر إلى وجهه مرة ثانية والابتسام.

انقضت السنوات بربيعها وخريفها صيفها وشتائها، أضم الزهور إلى صدري حينا فيزهر قلبي وأتساقط كما تتساقط الأوراق في فصل الخريف ثم تمطر روحي وتزهر ثانية وثالثة.

في سنتنا الرابعة من الزواج وبعد تخرجي مباشرة بدأت ثمرة حبنا بالنمو وكم كان جميلا ذلك الشعور المؤلم اللامؤلم، الحلو المر، أذكر يوما كنّا نستعد فيه للنوم قبل أن أشعر بضربة خفيفة أعلى بطني المنتفخ نسبيا فابتسمت ونظرت نحوه و قلت "ابنك يناديك" لم أشعر بالحب يوما أكثر من تلك الليلة حين جلس ما يقارب الساعة يحادث ابننا ويصفنا له وكان ذاك الشقي يركلني أحيانا فيعتبره ردا على كلامه ثم يعاتبه قائلا " هذه حبيبتي لا أسمح لك بضربها! "يومها نظرت للسقف فجأة ثم قلت " سأسميه آدم " وكان هذا الاسم غريبا على كلينا لكنني قرأت أن آدم الأول كان أول البشر وآدم هذا هو أول حبنا ولهذا أردته اسما لهذه الثمرة اللذيذة لكنه صمت قليلا ثم أجاب "وسأسميها ورد إن كانت فتاة "كان كلاما يؤمن أن الحب تشكل في شكل هذا الإنسان الصغير الذي يقبع بداخل أحشائي!

بقدوم الشهر السابع كان صغيري قد توقف عن تحريضي على الجوع والتقزز من الروائح والدوار والتعب والخمول الشديد ولعلها كانت أمورا خارجة عن إرادته ومتعلقة بطقوس الحمل لا أكثر، كنت أنتظر آدم وكان ينتظر ورد وولد آدم رقيق الملامح شديد البكاء، ضامر الجسد، محمر البشرة وكثير الدلال لكنني أحببته بكل قلبي أو على الأقل أحبه الآن!

لم أرى والدي منذ تخليت عنهم وها أنا ذي انتظر الموت وأنا أدري أني لن أراه وسأموت وأنا لا أدري شيئا عن آدم. والآن بعد أن كثرت

التجاعيد بجسدي أُدرك أنه كان علي عدم استعجال الحب وانتظاره حتى يجيء!

ونمت ليلتها أَضم تجاعيدي وتضمني، وآلاف الأفكار تراودني. الطفل الأول والحب الأول ووالداي كلها أشياء رميتها عرض الحائط مقابل سعادتي والآن جسدي يرميني عرض القبر مقابل حريته!

.....

هجرت مضجعي الذي ما اعتدت هجرانه منذ هجرتني روحي إلا لحاجة لا حاجة لي بعدها، وغادرت تلك الغرفة تاركة قبر روحي خلفي يستنجدني بصرخات مقدسة، وتدلل الصمت في عقلي فاشتد وهو الذي لم يحضرني أبدا، فما عدت أسمع صرخاتي ولا استنجاداتي، وبعد أن خرجت من ذلك الموضع الذي استعمرته كآبتي وحزني نحو الحديقة وهي المنطقة التي لم أغادر حدودها منذ أن سلمت روحي لسجن العجائز، ثم تقدمت وأنا أدرك أن شظايا روحي لا تزال عالقة تنتحب لتعود لروحي القابعة بقبرها وقلت لعاملة أراها هنا للمرة أولى" أما من زيارة لي اليوم؟!" كان سؤالي مجازيا وما أدركت قبل اليوم أن صوتي يهرب من حنجرتي عاجزا فاقدا للأمل فهزت رأسها سلبا، وغادرت نحو الطاولة الوحيدة المنتصبة بطرف هذه الحديقة لكنني وقبل أن أصل إليها تعثرت فتبعثر كبرياء أنوثتي -الذي ما كان يفارقني- والآن تأكدت أن التجاعيد ما غزت جسدي فقط بل غزت شظايا روحي واحتلت ذاكرتي واستعمرت حواسي، و تسللت إلى ذاكرتي كثيرة التجاعيد صورة ابنتي ورد - التي كانت تزاحم أفكاري - والتي قتلتها قبل أن تقابل الحياة.

بدأت مشاعري بالفتور تجاه وحيدي آدم وحبيب قلبي منذ أن دخلت تلك الجامعة، كنت أعمل بها أستاذة في مجال الهندسة المعمارية، وكان آدم قد بلغ الثالثة من العمر فاشتد دلاله حتى فسد وأصبح شديد البكاء، كنت حينها لا أزال في الرابعة و العشرين، ولا أزال ساذجة أحتاج إلى الكثير من الدروس من أمي التي ما إن تخليت عنها ما عدت ألقاها ولا حتى صدفة في الحلم، وبفضل سذاجتي ذقت الحب للمرة الثانية في حياتي ولكن طعمه كان شديد المرارة ممزوجا بذوق الخيانة اللاسع لكنني أحببت ذلك التمرد الذي كنت بحاجة إليه في حياتي فكيف ذلك وأنا هي الفتاة شديدة التمرد التي لا تنام ليلا إلا بعد أن تدرك أنها تمردت على النظام العام لحياتها ولو بارتداء بنطلون في حفلة رسمية!

أنهيت درسي يوم ذاك وأنا أشعر بتعب شديد، فخرجت وأنا أمشي مشية المغصوب على الحركة ليقابلني رجل كل ما كنت أعلمه عنه أنه كان عميدا للكلية التي أعمل بها، الحب يد حريرية الملامس قوية الأعصاب تقبض على القلب وتمس أكثر الأوتار حساسية بِه وهكذا كان ذلك الرجل كان يجعلني أغرق في بحر حبه كأني استنجدته للهرب من محيط حب عريسي، فدخل قلبي واحتله وأصبحت فجأة لا أرى إلا هو!

كنت أتزين بكل طاقتي كل صباح رغبة في أن أحصل عليه، ولم يكن ينساني يوما من غزله الجريء، كان يجيد تعليقي به وكنت ألحقه أنا رامية خلفي كبريائي. وكان وليد قلبي يسألني كل صباح حين أغادر سريره ببرود لأدخل لحضن غيره وأساريري متهللة "ما بال هذا الجمود والفتور الذي يخل بعلاقتنا؟!" فأتجاهله وأغادر السرير أو أغضب وأهجره أياما كنت أقضيها في حضن حبيبي الجديد، لا زلت لا أعلم

كيف لم يشعر بخيانتي وهذا هو الاحتمال الأقل فما يقتلني أن أفكر أنه كان يغفر لي وهو يعلم بخطيئتي!

ازدادت نوبات التعب فجأة فاضطررت لتحديد موعد لي مع طبيب المدينة وسقط علي الخبر كصاعقة، كنت حاملا بطفلي الثاني والذي كان سيكون اسمه ورد سواء أكان فتى أم فتاة وأنا أردته فتاة قبل أن أعلم بحملي حتى! لكنني لم استطع تحمل وقع الخبر فشعرت به يدق بقوة بقلبي وفجأة شعرت أنني نجسة بقدوم هذا الجنين إلى رحمي وتكونت حفرة سوداء بداخلي بدأت تشعرني أن هذا الجنين سيقتلني، لم أرى شخصا أكثر فرحا من وليد قلبي يوم علم بطفله الثاني ولم أجد شخصا أكثر تعاسة مني!

وبعد أن كان يعاملني كأميرة أصبحت أعامل كإمبراطورة لكنني كنت أشعر بدناءة كبيرة جدا فحتى بعد علمي بما أحمله ظللت ألقى ذاك الذي يسكن في زوايا قلبي كل مرة بلهفة حبيب مشتاق وأقتل من يسكن قلبي بأكمله ينظر لي بنفس تلك النظرة المجروحة! آه كم كنت خائنة.

وفي يوم من تلك الأيام المفعمة بأنفاس الشهر السادس العطرة وابتساماته التي تبعث في الجسد راحة من نوع خاص، ولطالما كان هذا الشهر مفضلي من بين كل الشهور فكان هو الشهر الذي أحصد به مشاعري، ذهبت لزيارة هذا الحبيب الجديد في شقة كان قد اشتراها خصيصا للقاءاتنا البعيدة عن عِش الزوجية، وتلاعب بعقلي يومها كالوسواس الخناس، و حين عدت للمنزل يومها كنت قد بلغت من الضيق حدي وبدا لي كلامه صائبا جدا فانتظرت مجيء وليد قلبي في غرفتي بعد أن أودعت آدم إلى منزل جارتنا، وحين دخل طبع قبلة دافئة على جبيني لكنني انتفضت منها كأنها أحرقتني وابتعدت عنه بسرعة

فعقد حاجبيه في استغراب ثم سأل عن آدم وبعد مدة صمت قصيرة كنت قد لحقته وشعرت أن الجاذبية فجأة أصبحت مرتبطة بغرفة النوم فأحسست أنها كانت تجذبني إليها دون رحمة كأنها تمنعني من الحديث لكنني استجمعت كل قوتي ودنوت منه قائلة "أنا أريد الطلاق!" فارتعشت شفتيه وصمت لكنني كنت أعلم أن هناك كلاما معلقا بين حديهما لم يرد قوله، وابتعد دون أن يعطيني ردا على كلامي فأعدت كلامي على مسامعه وبصوت أقوى وأكثر حده" أنا أريد الطلاق!" لكنه استمر بتجاهلي! فعدت إلى غرفتي وجلست هناك طويلا انتحب وحد أعلم أنه لن يحقق لي مطلبي والآن أتمنى لو أنه لم يحقق لي مطلبي!

وبعد أن انتفخت عيناي واحمر أنفي من شدة البكاء قررت أن أقوم بفعل مجنون ومتهور لعل الأمر يساعدني على حصولي على الطلاق. فأخذت كل ملابسنا معا، وكان كل رداء يحمل ذكرى خاصة ثم وضعتهم أمام الدرج وأشعلت النار بهم ووقفت أمامهم أصرخ بحضور وليد قلبي وعريسي المزعوم وجاءني ومعه ابني! ابني الذي رآني أقابل الموت قبل أن يبلغ سنته الرابعة، أيعقل أني كنت بهذه القسوة لا رحمة بي! ثم خطوت خطوة قريبة من الموت وصرخت "طلقني وإلا أحرقت نفسي كما أحرق ملابسنا" فلمعت عيناه واكفهر وجهه ورد وهو يضع آدم بعيدا عن الموت "لا يوجد لي خيار غير هذا" فهززت رأسي واقترب مني بل من الموت قائلا "لنمت معا إذا!"

وشعرت حينها أن الموت بدأ يدغدغ روحي، وبدأ الرعب يتسلل لشراييني فأدركت أنني لم ابلغ تلك الدرجة من الجنون المتهور بعد! أنا أريد الحرية لا الموت، فابتعدت عنه وأنا انظر له يقترب منه، فقدت

تركيزي لثانية ولا أذكر يومها إلا أني سقطت أرضا كما تسقط أعظم الدول وفقدت جنيني الثاني الذي قتلته بيديي وأنا لا أدري! واشتد بي الألم ثم تقلصت أوتار رحمي وصرخت صرخة استنجاد فقطع عريسي المزعوم الموت ليصل إلي ويحملني كما يحمل عروسه لأول مرة، كانت الدماء تتدفق مني وحينها كانت كل دناءتي ولا وعيي يغادراني، وشعرت فجأة أنني أغادر نحو السماء العليا حيث تتفاهم الأرواح بالنظرات وتلتقي القلوب حيثما تشاء!

بعد أسبوع كنت قد مللت تلك النظرات الفارغة التي كنت أوجهها للسقف حينا ولباب غرفة المشفى حينا آخر، عدت للمنزل ووجدت هناك ورقة طلاقي تنتظرني، وهي تجلس على عرش روحي وتنتعل كبريائي، يومها كنت قد عدلت عن رأيي وما عدت أريد الطلاق لكن كبريائي كان أقوى من أن أتوسل الحياة أن تنفذ لي طلبي وتعيدهما لي فتخليت عنهما كأنني أرمي حذائي القديم!

ورحلت عن حياتهما كأنني لم أكن يوما، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تخليت عن تلك المدينة وتخليت عن عملي هناك وبدأت من جديد في قرية صغيرة أدرس في ثانويتها البسيطة - التي أقامها سكان تلك القرية من أبسط المواد طمعا في تعليم أبنائهم وإرسالهم لجامعات ومدارس عليا- بديهيات للهندسة وكان تلاميذي فيها لا يتجاوزون السبع أشخاص، لكن أشعرتني بمتعة التدريس التي لم أكن أتذوقها.

كنت أجلس ليلا في بيت إحدى العجائز فتخبرني عن مدى فخرها بأطفالها وتحكي لي قصصهم الطريفة، فابلع لوعتي على ابناي اللذان رميتهما بعيدا لكن سرعان ما اعتدت ذاك الشعور، وكنت صباحا أغادر نحو مقهى صغير كانت تشرف عليه إحدى نساء تلك القرية الوقورات،

النساء اللواتي أن سمعن بدناءتي لذبحنني كيف لا وهن من يقدسن الحياة الزوجية ويكدن يعبدن الأبناء، فكنت أغلق فاهي خوفا من أن ألفظ أسماء أبنائي عبثا وأنا المعروفة بأني امرأة عازبة لا زوج لها!

أحببت تلك الحياة وأحبتني، فاعتدت قضاء يومي بين البساتين وزهور الأقحوان وزنبقة الحقل. ثم أعود ليلا عند الغروب أشاهد الشمس وهي ترحل تاركة خلفها ظل قبلة صفراء مفعمة بالحياة، ولم أكن أشعر براحة أكبر من تلك الراحة التي كانت تتملكني بعد أن أعود من منزل جارتي العجوز وأنا أشرب الشاي الساخن مع بعض قطع البسكويت التي أرسلتها صاحبة ذاك المقهى!

.....

كانت الرياح فوقي تصارع ذلك السواد الذي أرتديه، وكأس الماء المنتصب أمامي بكبرياء يراقب وشاح الكآبة الذي يرتديني، كنت على قدر من الجمال وغادر الجمال مع مهب الرياح الجنوبية ليصبح من نصيب صبية أخرى ستغلفها الدموع والتعاسة لأَنِّي أدري أن جمالي ذلك ما كان يحمل خلف طياته سوى الذل!

أذكرني فتاة في ثلاثينيتها تراقص الزهور وشعرها الحريري ينساب خلفها ذات ملامح غامضة، شديدة الحسن والجمال، كان بعض سكان تلك القرية يسمونني بآلهة الجمال في بداية التقائي بهم وبعدما بدأ الحزن والكآبة ينهشان عظامي لم أعد أُرى وأصبح من الصعب أن أظهر وملامحي الساكنة يجتاحها غلاف التعاسة الأبدية!

كنت متأكدة أن الجميع كان يراني مخلوقا لا يوجد مثله في هذا الكون مخلوق يتجرع السعادة صباحا وينام على غطاء التعاسة ليلا، أحببت تلك القرية حبا شديدا وأدركت أنها كانت ملاذي الوحيد من العالم، كنت أخفي الكثير وما كانوا يسألوني عما أخفي، قبلوا بي رضيعة تتجاوز الخامسة والعشرين وعشت معهم حتى بلغت الخمسين، كانت جارتي العجوز كلما جلست إليها تفاجئني بسؤال لا تنتظر إجابتي عليه قائلة" أشعر أن نصفك معنا فقط أين النصف الآخر يا نجوى؟!" فأهز رأسي وأعطيها كوب العصير الذي تحضره ابنتها من أجلنا كل ليلة ثم تبدأ ثرثرتنا المعتادة متناسين السؤال الدائم.

حتى جاء ذاك اليوم حين استيقظت على ألم شديد كاد يفتك بي، كنت أمام الموت وجها لوجه، ملامحي تتوسّله ووجهي يأبى استصغار نفسه ولساني يرفض التعهد بما لن أجيد القيام به، كان عليَّ تعلم كيف اغسل دناءتي وأرمي كبريائي بعيدا قبل أن يفتك الموت بي، فتقوست ملامحي واستندت دموعي على خداي وصرخت صرخة مدوية وجدت إثرها الكثير ممن اعرفهم أمامي والشفقة تطعن وجوههم ثم خرج الجميع وبقيت بعض النساء تحاولن الاهتمام بي وكنت قد بلغت قبلها الأربعين.

ظننت أنني قد انتقلت للسماء العليا أو أن روحي تحلق الآن بعد أن استنزفت كل طاقتي ومشاعري لكن الأمر لم يحصل وظللت طريحة الفراش ما يتجاوز الشهر حتى شعرت أني لن أقوم منه أبدا، وكانت نساء قريتي يتناوبن على الاعتناء بي خلال هذه الفترة فأزاحوا المرض عني ووضعوا دينا ثقيلا على عاتقي، ثلاثون يوما أو ما يتجاوزها وأنا لا أغادر فراشي وأن غادرته كانت النساء حولي تحملنني، وكنت أنام الليل وابنة جارتي العجوز أمامي فاستيقظ بعد منتصف الليل وقد اشتدت

على الكوابيس فأجدها نائمة، حينها كنت أزفر براحة فلم أكن أريد لأحد أن يداعب ضعفي ولم أنم نوما مثل النوم منذ أن غادرت مدينتي، وبقيت الليل كاملا أتبادل النظرات مع سكان السماء، نظرات فارغة لا يفهم منها شيء وظللت أحدق بهم حتى أصابهم الانزعاج من عيناي فجعلوني أعود لنومي الذي لا يشبه النوم في شيء.

كان يوم غسيل الملابس موحدا يوما واحدا في الأسبوع تجتمع فيه نساء القرية لغسل ملابسهن وملابس عائلاتهن وكنت أنا انظم لهن مرة كل أسبوعين لغسل ملابسي المتراكمة، لكن هذا اليوم أخرجت أغلب الملابس في خزانتي وقررت أن أغسلها عل وعسى أن تغادرهم رائحة الذكريات التي ترهقني، ولم أدرك لحظتها أن إحدى الذكريات المؤلمة كانت قد تسللت بين ملابسي وحين بدأت بغسل تلك الملابس سقطت تلك الذكرى أرضا ولسوء حظي سقطت قريبا من جارتي العجوز فحملتها بين يديها ووجهت نظرها نحوي قائلة "ألم يحن الوقت بعد يا نجوى؟ ألا تعتقدين أن نصفك الآخر قد قتله الانتظار؟ ألن ترأفي بروحه؟!" فانتفض قلبي جراء نبرتها الغريبة، وارتعش جسدي ثم نظرت بعيدا وأغلقت جفناي وكانت هذه عادتي كلما أردت الكذب، لكن يومها لم أكذب بل صمتت فقط، وقررت حينها أنني سأطلب الصفح من ابني الذي بلغ تسعة عشر سنة والذي لا أعتقده سيصفح لي يوما!

وغادرت بعد أن انتصفت الشمس السماء نحو منزل وليد قلبي، ثم طرقت الباب طرقتان، هوى قلبي للأسفل أثرهما ولم أعتقد أنه سيفتح الباب لكن الباب فُتح ومن فتحته امرأة تنافسني جمالا وتكبرني سنا ثم سألتها عنه فنادته، لم أتوقع أن أراه هكذا أبدا، غزا الشيب شعره وحفرت التعاسة أودية التجاعيد في وجهه وأصبح لون بشرته أدكن

نوعا ما وظهرت عيناه خلف انتفاخ خفيف كقرية تظهر لأول مرة خلف الجبال، لم تكن عيناه تحمل الشوق بل كانت فارغة تماما وما إن وقع نظره عليه حتى تغيرت تعابيره وارتجف جسده وحملق بي طويلا قبل أن يقول "عدتِ إذا يا نجوى؟!" أغمضت عيناي إثر نطقه لاسمي وحاولت تجاهل دقات قلبي المسرعة ثم ابتسمت وأنا أحاول أن أخفي المرارة التي تجتاحني وأردفت قائلة "أرى أنك خلقت حياة أخرى لك من بعدي" نظر بعيدا عني وقال بنبرة متعبة هزت عظامي "بل أنتِ كل الحياة!" ولم أشعر حينها سوى أن كلماتي فقدت حروفها وتبعثرت في الأجواء، لم أدرِ بما أجيب وبقيت معلقة بين الصراخ والصمت ثم أكمل قائلا بعد أن اجتاح الفضول عقله "وأنتِ هل خلقتِ حياة أخرى "فابتسمت وأنا أتذكر تلك القرية التي تركتها خلفي اليوم وهززت رأسي إيجابا، فرأيت الجرح يرتقي ليصل عيناه، وبعد صمتي الذي سحق زهور صدره سألت "أين آدم" فأجابني قائلا "حصل على منحة دراسية للدراسة خارج البلاد وغادر قبل سنة ونصف تقريبا واعتقد أنني سألحق به قريبا فهو لم يعد يطيق حياة الغربة"

ثم سألته مرة ثانية" هل يعرف أنني والدته؟!" فأومأ وأردفت قائلة "وهل يحبني؟!" فصمت صمتا طويلا غادرت إثره خارج منزلي الذي تحتله امرأة غيري وفي تلك اللحظة أدركت أني سأموت وذنبي يطوقني لكن رحلتي لم تكن لتنتهي هنا حتى بعد إن سحقني ندمي، كان عليَّ أن أطلب الصفح من والدي الذي قابلني بالرفض التام والذي علمت من خلاله أن أمي ماتت بسبب حزنها على مغادرتي ثم عدت للقرية وبكيت ليلتها كما لم أبكي يوما، كان كل شيء بداخلي يذرف الدموع وهناك انتهت رحلة روحي ولم يبقى سوى شظاياها ورمادها العالق بداخلي.

لم تغادرني الأصوات الصارخة داخل عقلي منذ تلك الليلة حتى كدت أجزم أنني سأنضم لها كنت استيقظ على همس أمي الصارخ باني قتلتها وأنام على صراخ ابنتي الراحلة أني قتلتها فقتلت هذه الصيحات روحي كانتقام مني.

شحب وجهي وأصبحت الدموع العالقة بين أهدابي منظرا يوميا لا يغادرني، وحفرت الدموع تجاعيدي بيديها الصغيرتين، ونحل جسدي وقلت قابليتي لفعل أي شيء حتى إنني جزمت على مغادرة تلك القرية التي أصبحت أراها كأمي التي لم تلدني وبدأت مراحل الحزن الخمسة تتشكل في عقلي كجنين صغير في رحم أمه، أنكرت الأمر طويلا وكنت أبقى في حضن جارتي العجوز أياما تمسح على رأسي وأنا أردد "لم أقتلهما لم يكن الأمر بيدي" وكانت تواصل المسح على رأسي دون أن تسأل كلمة أخرى كانت تعلم أن ما أمر به أصعب من أشرحه له وكأنها كانت تعلم أن تلك الزيارات التي أرسلتني إليها هي ما قتلت روحي لشدة مأساويتها، كانت تدري أن زيارة نصفي الثاني - كما تسميه - هي ما ألقى بي للهاوية.

واستيقظت يوما كنت أشعر فيه بالغضب على نفسي، غضب كنت أعتقد أنه انبثق من اللاشيء لكن في الواقع كان منبعه بحر الندم الذي غرقت فيه ثم أصبت بكآبة تلاعبت بشظايا روحي وجعلتني أعيش أضغاث أحلام وردية، كانت تلك الكآبة تعانقني ليل نهار ضامة إياي لصدرها البارد ولا زالت تلك الكآبة تسكن عظامي لهذه اللحظة!

.....

كل ما يفعله الإنسان سرا في النهار يظهر علنا في ظلمة الليل، فالسواد لا يرحم وأنت لن تسمع نفسك وأنت تصرخ بكل ما أخفيته حين سيسمعك الجميع وفجأة تسقط تلك الهيبة التي عملت على إحضارها طويلا أرضا، وتسمع صوت انكسارها فتنتفض شظايا روحك العالقة بين أضلعك!

حين بلغت الخمسين كانت جارتي العجوز قد توفت قبل خمس سنوات بالضبط، ولحظة مماتها اختفت هالة الكآبة التي أحاطتني وخلقت بدلا عنها درع من الحزن يحصنني ضد أي سعادة، غرقت بوصولي للخمسينيات في بحر مظلم وأنا لا أجيد السباحة، وقطعت حبل نجاتي من شدة تشبثي به رغم أنه لم يكن لينجيني، وأمسيت يومها وحيدة والكثير من الناس أمامي، وحيدة في طابور طويل وعلمت آنذاك أن كل ما يحصل لي وذاك الحزن المختبئ بين عظامي ما هو إلا انتقام صادر من كل تلك الأرواح الغاضبة.

فمنذ متى تصارع الأجساد الرصاص ولا تخرق به؟! ومنذ متى تعاند الروح السقوط ولا تجرح؟! كان غباءً طائلا مني أن أفكر بتلك الأنانية بل كان الغباء، فكري حين ظننت آن أفكاري صحيحة ولو كانت مخطئة أم أن الغباء بحد ذاته كان سقوطي بين أنياب أكثر الأشخاص طيبة وأنا أكثرهم خبثا فتنهشني طيبتهم ولا تؤثر بي ويعديهم خبثي فيغدون مثلي! وحتى بعد أن بلغت الخمسين كنت لا أزال متمسكة بالحياة، لقد كنت أؤمن أن الحياة التي تعذبني ولا تهديني شيئا غير التعاسة حياة لا أعيشها بل حياة ينتقم غيري عبرها مني.

بعد أن بلغت الثانية والخمسين من العمر، وكان جسدي عجوزا وفكري عجوزا وكآبتي عجوزا رغم أن من هم بسني لا يزالون شباب الفكر والجسد فحين استقبلتني جارتي العجوز أول مرة كانت تبلغ الخمسين ولم أرى في حيويتها أحدا، رميت ذكرياتي خلفي للمرة الثالثة على التوالي وتخليت عن تلك القرية التي جعلتني أكبر بين أحضانها وانطلقت نحو مهربي الذي لا مهرب من هذا السن، فأنا العجوز التي لا تملك ابنا ولا سندا في هذه الحياة فسلمت نفسي لدار العجزة أو المسنين سموها ما تحبون لكنني أفضل تسميتها دار البؤس فمن غير البائسين يسكن هذه الديار، ضحايا العقوق وضحايا العجز الشديد وضحايا الدناءة أمثالي، حصلت على غرفة بسيطة كانت شديدة البياض حتى جعلتني أشعر أنني الشيء الوحيد المشبع بالسواد في هذه الغرفة!

كنت أفيق أياما فيخيل لي صوت ابنتي ورد - والتي لم أكن أدري جنسها يوم قتلتها - وهي تصرخ أنني حرمتها من عائلة لطيفة وجعلتها تحلق في سماء المفقودين وهي لم تحضر بعد وكنت أنام بعض الليالي فيأتيني آدم طفل بصوت شاب يناهز العشرين وهو يصرخ ويبكي ثم يقترب مني ويطعنني كما طعنته وأحيانا أخرى كنت أرى والدي ولداي ينظر لي بسخط شديد، فأي أب يحرم من ابنة كان يداعبها حتى كبرت، طفلة لا تغادر كتفاه ولا يزين البيت غير صوت ضحكاتها ويغفر لمن حرمها منه، وقد كنت أنا من حرمته مني ولم أكتفي عند هذا الحد وحرمته من أمي فكيف له يغفر لي خطيئة بهذا القدر أن كنت أنا لا اغفر لنفسي!

مرت السنوات ودرع الكآبة الذي حضرني ضحية لدناءة روحي يجالسني منشدا لي أغاني الحزن والتعاسة الأبدية مرحبا بانضمامي لعالمه كأنني انضممت له اليوم، وتحضرني أصواتهم صارخة حتى

شككت أنني أضحيت مريضة عالقة في غبار الماضي وما تلبث أن تغادرني تلك الأصوات حتى يحضرني أصحابها في كوابيس ليلية ويومية.

وبدأت الأمراض تفتك بجسدي، الذي أصبحت الرياح تحركه يمنة ويسرة لشدة فراغه، فتجعلني الأمراض أتلوى ألما وأصرخ تعبا واستنجد روحي أن تعود فلا ألقى منها إلا الرفض ويزداد ألمي فأصرخ حتى تسقط دموعي، كانت صرخاتي تحدث ضجة وصخبا كبيرين بهذه الدار التي اعتادت الهدوء.

مر عقدان كنت خلالهما اجلس أمام مرآتي ليل نهار وأنا الحظ تشكل وديان التجاعيد في وجهي واختفاء ملامحي، وكانت الشمس تطل صباحا فأشعر بها تنتشل شظايا روحي من جسدي، وظل الندم خلالهما يتجسد لي شيطانا مصفدا يعبر من خلال درع الكآبة الذي نشأ بي نحو قلبي فيقطعه ثم يهرب منه فيتقوس جسدي ألما، وظل ذلك التقوس الذي أشعر به يزداد يوما بعد يوم يرافقني كأن الزمن جمد إحدى لحظات خروج الندم مني قبل أن يعبرني مجددا.

واستيقظت اليوم بعد أن بلغت السبعين -قبل بضع أيام- من كابوس وجدت إثره أمي تقف أمام باب غرفتي ونظراتها فارغة ولا تحمل أي نوع من المشاعر-وهي التي لم تزرني أبدا- أغلقت عيناي ثم فتحتها فوجدتها لا تزال واقفة أمامي وملامحها الثلاثينية بنظراتها الفارغة تراقبني ثم أغلقتها للمرة الثانية فوجدتني عدت طفلة كما كنت يوم خرجت من منزلهما فما وجدت إلا أن أقوم من مضجعي وقبر روحي نحو المرآة التي تتوسط حائط غرفتي وأنا أحاول كتم صرختي التي لا ترغب بالصمت فوقفت أمامها وأنا أنظر لوجهي وقد اختفت منه

التجاعيد ثم ألقيت نظرة نحو ملابسي فوجدت ذاك الفستان الأرجواني يحيطني الفستان الذي ارتديته حين بلغت السابعة عشر ثم اختفت تلك الغرفة التي كنت بها وظهرت غرفة المعيشة الخاصة بمنزل والداي، ودون أن أدري وجدتني أطعن والدتي طعنات متتالية بسكين لا أدري من أين أحضرته كأن شيطانا سكن جسدي فاكفهرت ملامحها ثم اختفت من أمامي ولا تزال الدماء تحيط يداي.

اختفت الدماء وتلاشى فستاني وعادت غرفتي لطبيعتها، لكن ذلك المنظر ظل قابعا بين عيناي يلوح لي تارة ويبتسم لي تارة، كأنه يتعمد أن يبقى عالقا بين ذكرياتي، ظللت طويلا انتظر مرضا ينتشلني من هذا الوضع ولم يحضرني سوى الألم ثم طلبت زهايمرا ينسيني كل ذكرياتي وجاءني عكس ما تمنيت، مرض فتك بشظايا روحي وأحضر معه كل ذكرياتي حتى تلك التي رميتها بعيدا، وحتى حين طلبت الموت كوفئت بهذا الخلود الذي يرعبني.

الساعة لا تتجاوز الرابعة بعد منتصف الليل، وأنا أشعر بعجز شديد يتخلل عظامي، خرجت من غرفتي التي بدأت أشعر أنها تحبسني بين جدرانها وانطلقت نحو خزانة كنت أرى بها كل الأدوية كأنني ذاهبة لمنطقة إعدامي وحملت دواءً لم انتبه ما كانت فائدته لأنني لا أرتدي ما اعتدت منه إنارة طريقي وتبيين حروفي بل تبعت خطواتي ظلال الأشياء التي بدت لي مبعثرة جدا كما هي أفكاري الآن وعدت لغرفتي واضعة ما بيدي على الطاولة التي أمامي ثم استلقيت فوق قبر روحي وانتظرت حضور خصمي الوحيد إلا وهو النوم.

ما اللعنة التي أصابتني فأعجزت روحي وجسدي لكنها سمحت لآخر أنفاسي أن تبقى معلقة بهذه الحياة؟! يجدر بها أن تكون لعنة قوية

استطاعت طمس كل شيء بداخلي، أيعقل أنها الدناءة التي أصابتني منذ كنت رضيعة أم أنه الجمال الذي أصابني بالغرور.

الغرور أنا واثقة أن الغرور الشديد هو ما سبب لي هذا المرض العقيم، من يصدق أنني لم انتبه أنني كنت اجعل روح كل من حولي تحتضر وأنا واقفة على قمة كبريائي أوزع نظرات لا اذكر ما كان محتواها؟!

آمنت اليوم أن كل ما فعلته هو ما يجعلني أتعذب الآن وهو ما قتل روحي وهي فتية، فوضى الأزمان الموسومة بعار الدناءة التي عشت تحت كنفها الكثير من حياتي هي ما أوصلني لحالة الذل الذي أعيشه الآن.

كنت شبيهة بفراشة تحررت من شرنقتها أخيرا وأخذت ترفرف هنا وهناك غير مدركة أن هذه الرفرفات تشكل أعاصيرا هوجاء في بلدان النصف الآخر من العالم، وأنا ظللت أرفرف سنينا طوال دون أن أدرك أن كل ما أقوم به سيعود علي سلبا، لم أكن ادري أن كل ما قمت به سيشكل فوضى صاخبة عبر سنيني ولم أعلم أن طيشي الزائد سيذيقني الذل، لم يذقني إياه فقط بل جعلني استطعمه وأتذوقه مرارا كأنه يعلمني طريقة تذوق الأشياء ولم تكتفي الحياة بهذا الانتقام لتزيدني كأسا من التعاسة يوميا كأنه دواء أنا مجبرة على تجرعه وحقنة من الأفكار السلبية والانتحارية مباشرة نحو منبع أفكاري!

.....

استيقظت صباح اليوم التالي وأنا أشعر أن الموت حاضر إياي وكانت شظايا روحي عالقة في حلقي كأنها تأبى الخروج، ثم فتحت عيناي لأجد

أن ذلك لم يكن سوى كابوس كالبقية لكن ألم السبعين عاما بقي عالقا في عظامي، لم يحضرني الموت لكنني أحسست به يختبرني ويفرض سلطته على دقات قلبي ثم انتشلني من الموت صوت الممرضة التي أخبرتني أن هناك زيارة لي، الأمر الذي أعادني للحياة وخلق لي روحا بداخلي جعلتني اهمس "من يا ترى تذكرني الآن؟!" أنا متأكدة أنه أحد أفراد القرية فهم الوحيدون الذين كانوا يزورونني بين الحين والآخر لكنني لا أذكر سوى انقطاعهم عني قبل سبع سنوات تقريبا.

جلست فوق مضجعي وتلك الشظايا بداخلي راحت تتكاثر لتخلق في روحا جديدة لربما كان سببها الفرحة الشديدة، ثم وقفت أمام المرآة أحاول تعديل مظهري وتعديل فستاني الذي أشعر به يتوسل جسدي ليتشبث به بعد أن كان – جسدي - يملأ كل الفساتين في مظهر مغر!

دخل إلي كهل لربما يتراوح عمره ما بين الأربعين والخمسين، بدأ الشيب يغزو شعيرات قليلة من شعر رأسه المائل للشقار ثم اقترب من سريري قائلا بنبرة متسائلة "نجوى مالك؟!" فهززت برأسي إيجابا لألحظ امتعاض ملامحه، قال بصوت تبينت فيه الندم "أنا آدم" ارتعش جسدي وافترقت شفتاي وأنا أقول" ابني، هل رق قلبك أخيرا؟!" فاكفهرت ملامحه وأدكت أنني بدأت الحديث بالطريقة الخطأ ثم زمجر في وجهي قائلا "قلبي لن يرق نحوك أبدا؟! هل رق قلبكِ نحوي يوم تخليت عني؟! أكيد لم يفعل فامرأة تتجرع الأنانية كما تتجرع الماء لا قلب لديها"

فانقبض قلبي بعد أن أنهى ما قاله، أيعقل أنه يكرهني لهذه الدرجة، استجمعت شتات روحي التي لم تنمُ إلا قبل قليل وقلت بصوت أشبه إلى الهمس "آدم، بني أنسيت أنني من حملتك تسع أشهر وتحملت

ألم ولادتك دون أي تذمر!" فعلت معالم الاشمئزاز وجهه وقال بنبرة ساخطة "أتريدين مني تذكر رحمك المظلم ونسيان ثمان وأربعين سنة من اليتم، ثمان وأربعين سنة تخليتي فيها عني مقابل تسع أشهر حملتني بها، تسع أشهر بخلتي بها على أخي الذي اجهضتيه بغبائك؟! هل ترين الحماقة تحيط عيناي؟! "وهنا لم تقدر أقدامي على حملي فسقطت جاثية أمام أقدامه وأنا أصرخ وأبكي وصوتي المتقطع ممتزج بنبرة الحزن ولوعة الصياح" هل تراني سعيدة بما يحصل! ها أنا اجثوا أمامك الآن فلتغفر لي يا آدم اغفر لي ما لم استطع غفرانه لنفسي، اغفر لي إحضارك لهذه الحياة المظلمة بل اغفر لي دناءتي، اغفر للدنيا كونها شكلتك جنينا في رحم أم شديدة الدناءة" وواصلت شهيقي العالي ثم ابتعدت عنه وجلست مرتكزة على جدار الغرفة وصوت شهقاتي يعلو مع الوقت ألم يكن بإمكانه تركي أموت مع تعذيب ضميري ذاك؟ هل أتى ليضرم النار به وبي؟ ألن يرأف نحوي ويتركني أموت بسلام!؟

الموت، توحدت كل الأصوات بعقلي وبدأت توسوس وتصرخ بالموت ولا شيء غيره حتى وجدتني أحيط أذناي بيدي أما هو فنظراته الفارغة تأبى مفارقتي، نظراته التي التمست فيها شيئا غريبا - إضافة للفراغ - لم أعرف ما هو، والصيحات التي سكنت عقلي ما زالت ترفض الصمت.

ولم أجدني إلا أحمل نفسي متوجهة نحو علبة الدواء التي أحضرتها بسبب الأفكار الانتحارية التي راودتني وما إن أفرغت محتواها بيدي حتى هرعت فتاة لداخل ثم أسرعت بنزع حبيبات الدواء من يدي والتفتت نحو وجه ابني ثم زمجرت "أبي اطلب منك أن تأتي لتعيدها إلينا فتجعلها تقتل نفسها!! أي أب وابن أنت؟!" وعادت إلي تحضنني

وهي تتمتم بقوة أنها ستبقى معي ولعلي خضعت لحضنها البريء هذا فتسابقت الدموع بين عيناي وسقطت حروفا أجهضتها منذ زمن! وفجأة بدا لي صوتها الهامس مألوفا هي الفتاة التي استمرت بالعناية بي - وببعض العجائز الآخرين - خلال السنوات الثلاث الماضية، وبالرغم من أنها حفيدتي لم تنبس ببنت شفة عن الأمر طوال مدة بقائها معي!

ابتعدت من حضنها ذاك بعد مدة صغيرة وحملقت في وجهها بشدة رغم دموعي التي كانت تشوشه، هل كنت بائسة لدرجة أنني لم أرى مدى شبهها بي! شعرها الأحمر المرفوع للأعلى مع بعض الخصلات المتمردة منه، وعيونها الغابية الواسعة، بشرتها التي تميل للسمار وشفاهها الممتلئة هي حقا الصبية التي جرفت الرياح جمالي إليها، لكن كيف لهذه الطيبة أن تتجرع الحزن كما تجرعته، جمالي لا يبعث بشيء غير التعاسة ولا أريد للتعاسة أن تمسها! يا رب أتوسلك ألا تجعلها تتجرع الحزن كما تجرعته وكما تجرعته والدتي قبلي بسببي!

وقفت أخيرا من تلك الأرض الباردة وتوجهت نحو آدم لأحضنه حضنا طويلا ابتعدت عنه بعد أن شعرت انه لن يبادلني قريبا "شكرًا لرحمتك نحوي" قلت واللوعة تعبر كبدي ثم أشرت نحو الفتاة الجالسة على الأرض ثم سألتها أخيرا" لم اعرف اسمك يوما؟!"

لتقف ويتدلى فستانها الأبيض خلفها فظهرت لي ملاكا لفظته السماء بعيدا ثم أخذت تقترب مني قائلة بحيويتها المعتادة "اسمي ورد، وقد أخبرني جدي إن اسمي على ذوقك أنت" فخفق قلبي بحب لأول مرة منذ عقدين أو أكثر وجذبتها لحضني مرة أخرى كأنني أرى النعيم بها! وما إن أخرجتها من حضني حتى قال آدم بنبرة جافة "سأذهب لأوقع على وثائق خروجك من هنا" ثم اتبعت ورد كلامه قائلة وهي تتأبط ذراعه "

تعال لآخذك للمكان إذا" فأومأت بابتسامة ودموعي تأبى التوقف منذ دخوله أومأت وأنا اعلم أنني لن أغادر غرفتي هذه اليوم!

اضطجعت على سريري ولم أشعر إلا بالسواد يحيطني أخيرا، السواد الذي انتظرته طويلا، الشيء الوحيد الذي ظل معلقا فوق جبيني طوال حياتي هو ذنبي، ذنبي الذي علمني إن بعض الأفعال الصغيرة لها عواقب ضخمة لا قدرة لي على تحملها ولا أستطيع إجهاضها! ولربما لن افعل يوما.

أنا عالقة في هذا السواد بعد أن سقطت من حافة عمري التي بقيت واقفة عليها طويلا لكن السؤال الذي يدغدغ أطرافي: أهذا هو الموت الذي أردت؟!

ذاكرة منهم

بقلم.. لمياء الغراوي /العراق

تزايد دقات مقبض الدم حول بوابة قلبي وأنهض من نومي مفزوع أتجه بترنح نحو الباب أطيل النظر نحو شماعة ملابسي أراها واقفة بصمود أستمد منها أشلاء قوتي لأفتح الباب ويبدأ شريط واقعي بالتزاحم أمامي؛ لتطفو تلك الطفلة تزاحم هواجسي.

"بابا أين سنذهب؟"

قالتها بنبرة طفولية مليئة بالحنان، ليأتيها الجواب بصوت رجولي أجش مستمد عطفه من براءتها:

"حبيبتي سنشتري بعض الشكولاتة، وحاجيات البيت؛ لنرجع"

سرعان ما تقفز طفلته بفرح قائلة:

"حسنًا لماذا لا أتأرجح قليلًا، ثم نعود سريعًا"

يجيبها ذلك الأب الحاني بلطف:

"لا بأس طفلتي لكن فقط قليلًا، ولا تطلبي أكثر فقد نتأخر"

مشهد حفظته عن ظهر قلب فقد كنت أتمعن كثيرًا بملامح الطفلة وأبوها مطولًا وهما يتحاوران، فكان منظرهما جميل جدًا ودافئ أكثر مما الشتاء على مقربة الحطب وعلو النار.

"تشير أنباء الأخبار عن التقاط صورة لمشهد طفلة تحتضن رجل يبدو إنهُ أبوها، قد كانا يقفان قرب أرجوحة، مما يظهر إن الحياة تأرجحت بهما فأوقعتهما بدماء ورديه تُغني للحياة؛ فعصفهما الانفجار ليجعل أحداقهما تراقب مشاهد الدم قبل مشهد الطيران في الجو عاليًا وقبل أن يتأرجحا ها قد هبطا أرضًا..."

كان هذا صوت رجل الأخبار يصدح بخشونة مع هذا الموقف الناعم، كان ذاك الرجل الإخباري ذو اللحية السوداء والشارب الخفيف، مع نظارة صغيرة الإطار وأنف طويل، بشفاه سمراء وشعر أسود خفيف، يُذيع عن انفجار حدث قبل قنبلة أو أكثر بقنبلتين، فالساعة صار مؤشر عقاربها متفجرات، ها قد أحرقت قلب الصغيرة وأبوها.

اعتلى صوتي نعم إنها هي هي، تلك الطفلة التي راقبت مشهدها عن كثب يا إلهي صارت ضحية الدم قبل أن تستمتع بشكولاتة وأرجوحة.

مر هذا المشهد فوق قبعة ذاكرتي لأرفعها بأسّى ودمع، وأفتح الباب خارجًا نحو المطبخ باتجاه الثلاجة لأشرب كوب ماء يبرد قلبي الثمل بالاحتراق.

تزاحم الأخبار حول قتيل وجريح وآخر سجين والكل مُتفرج، شخص واحد فقط من يبدأ بسحب الخيط نحوه؛ ليفتح بقية العقد.

هـو وحـده مـن يسـتطيع تتبـع الأحـداث لمعرفـة السـياق ويـأمر بحـذف وتأخير، أو ربما تقديم!

كل هذا وذاك يتكفله واحد لا غير.

لكـن المشـكلة إن صـنّاعه أحيانًـا متعجرفـون ويبقـون غامضـون حتـى النهايـة، أمـا فئـة أخـرى فهـم المتـاجرون، يتـاجرون بـهِ حيـث شـاءوا وأرادوا.

نعم إنه الـتـأريـخ ذاك الوحيد الذي يخط بسطوره كل ما حدث، لكن بعد أن تأتي عواصف الغبار لتغطي ما حدث فيبدأ هـو بسرد ما كان يحدث.

الثالث من فبراير تأبط ذاك الدفتر الأزرق واعتلى سريره معلنًا فرقعة أصابعه يليها حشو ذلك الدفتر، بعد أن يمارس تحريك مخيلته بأحداث الطفلـة التـي صـارت جـزء لا يبـرم مـن ذاكرتـه، بـدأ يـدس حبـر قلمـه بأحضان صفحته.

أظن إننا في الربيع فالجو يبدو معتدل في الخارج ومحاكمتي في غياب مطبق، ناهيك عن سيناريو الأوضاع الهابطة من قاع لآخر، فلا داعي لتشخيص الطقس، فكلـهُ واحد، فالليل والنهار أصبحا تؤام متشابه، لا ضير بتعاقبهما.

إلا إن الزنزانـة تعـج بارتفـاع حرارتهـا معلنـة الويـل لسـاكنيها الجـاثيين حـول أنفسـهم كالقرفصـاء، كنـت أصـرخ بشـدة وأشـتم كـل قـادات الظلـم والعاملين في تلك القاعة، حتى بت ألعنهم بأسمائهم.

جمال اللعين السافل.

سيف القرد المقرف..

سعد الكلب المتسخ..

حارث الدمية الممزقة...

رحت أقذف لهم لعنة تلو اللعنة حتى خلت بإن حبال أنفاسي قُطعت، إلا أن المثير حقًا بأن كل هذهِ المشاهد كانت في مختلج صدري ولم تتحرك شفتاي إلا لأشهق قليلًا من أكسجين الكبت وأستبدلهُ بثنائي أكسيد الزنزانة.

تشتعل الحرارة في أركان جسدي، ورأسي يهاجمه بركان الصداع الثوري.

كان زين يلعب معي الغميضة ويباغتني مسرعًا بالكشف عن نفسهِ فصغيرتي لُجين تفضحه وتنطق باسمه أينما لمحته، حبيباي أين صوتيكما ليحتويني وأشعر بطعم الطقس والحياة!

تركت ما التف حول إصبعي من ذكريات، فازعًا لصوت مزعج قد اعتلى، يبدو إنهُ لي! عساني أتخلص من ركام الظلام حول مخيلتي فشوقكم كاد يمزقني.

بحَّ صوت مأمور السجن بمناداتي نحو مكان قد يبدأ فيه شيء لا يُحمد عقباه، لكن لا بأس قادتني قدماي نحو مبتغاه.

وقفت على مقربة من جسد يرتدي بدلة سوداء مع شنب خفيف وعينان محدقتان، وأنف عريض، شعر أشمط خفيف، مستحل جسد المنصة

المنتصبة بشموخ والموضوعة في قاعة كبيرة؛ ليفقع مسمعي بنبرة مليئة بالقرف: محمد أمين.

فُتح باب السجن في الثالث من فبراير شعرت وكأنه فتح العالم من حولي فأنا لم أعرف معنى الحياة مذ خمس سنوات، ترنحت في سيري حتى وصلت مهبط فقاعة الصوت، جئت أخطو بخطوات وئيدة من زنزانتي المُظلمة ذات النافذة العلوية لأرى قيود بمعصمي تضغط حولها كلما حاولت أضافة حركة زائدة.

وبين كل قدم وأخرى كومة تساؤلات واستفسارات وأولها:

"لِمَ أنا هنا بهذه الخُطى؟"

ليباغتني الصوت من أعلى المنصة والتي يفترشها جسد رجل سمين ذو أطنان من اللحوم، بالكاد ألمح عيناه الصغيرتان، وأنفهُ الطويل المعقوف نحو الأسفل، تلتصق وسطه نظارة طبية بإطار أسود كسواد قلبه، وتغلف يديه المحشوة باللحم مطرقة لا حول ولا قوة لها.

ليصرخ بنبرة عالية مع انتشار كومة الرذاذ من فمه الممتلئ بالجور والظلم:

"أين المتهم؟"

تخفت دقات القابع في صدري، فقلبي ينتظر ثورة الوجع التي ستقام بكل أركانه وشراييهِ بعد دقائق من إصدار الظُلامة، المُعنونة بالحُكم؛ لأعرف موقعي، فأنا للآن مُتهم، ربما بعد قليل سأكون مُجرم، وربما مجرم بتقدير محترف، وشهادة دراسات عليا.

صراخ يتراكم في داخلي لأقول بعنُف:

"أطلقوا سراحي فأنا رجـل بـريء، قضيتي تناهض الإنسانية وتقف كل المنظمات معي، فيما لو كانت تحافظ على حقوق الأنسان حقًا"

لكن كل هذه الفوضى التي تسربت في داخلي سرعان ما انتشر بريقها؛ لينطفئ في الظلام المكتظ بالواقع!

وقفت بجسد مذلول وكيان مخذول تحت قضبان الظلم المهول؛ لأنتظر إطلاق الرصاصة في صدغي وانتشار دمي بلا طالب له، فأنا مُجرم!!

صوت ابنتي لُجين احتضن رأسي ولم تفارقني نظراتها وهي تناديني:

"بابا هل سأكبر وأبدو أفضل من زين؟ فهو يُزعجني"

"حبيبتي أنت أجمل منه، ولكنه ُأيضًا جميل"

كانت هذهِ المقارنة طقوس يومية لا تفارقني أبدًا، وكنت أستمتع معها، فصغيراي جميلان، ولكن دور الأنثى يطغي عليها حب الجمال وانتزاع الفوز دومًا في كل مرة من المشاغبات مع أخوها، وبكل ثمن حتى تبدأ ثورات مقارنة لا مناص لها!

وَلَكم ألعن العاشر من ديسمبر عندما اشتد القتل، والدم أصبح سلعة متعارف عليها، لانتشار ثورات الظلم في شوارع البلد وبين أزقه المدينة وأروقة الحي.

تم إيقافي بتهمة السطو على أحد محال الأرغفة، ولبشاعة الحظ كان مشتبه بها، على إنها مستودع أسلحة وأفكار مناهضة للأمن المكتوب

حبر على ورق، بلا تنفيذ أو تسديد هدف واحد على الأقل لصالح الشعب؛ لأزج بالسجن بضريبة الأمن، بالكاد كان مصيري ضد الإنسانية، زمجرت معلنًا عن براءتي بصوت عالٍ غير إن السلطات المعادية كان نباحها أقوى من مواء رجل فقير.

تغير الحكم وجاء أكثر من حاكم زهاء خمس سنوات كما قيل لنا، فنحن نرى في كل مرة تغيرات جذرية في أحشاء السجن سرعان ما نسمع بمجيء حاكم جديد!

لأسباب الثورات المشتعل فتيلها حينذاك.

هذا ما جعلني أظل قابعًا بحياة بلا روح، بلا تحقيق، أو مطالبه بالأفراج عني، نسيت لون الشمس ورائحة الحرب وفوضى الدمار، وكل شيء، بقي عالقًا في مخيلتي إنني مجرم لا محال كما يعتقدون بل يجزمون. فأرواحنا باتت سلع متاجرة بورشه "ولادة مُتهمون" لنصبح عما قريب مجرمون لا حول ولا قوة لنا سوى الأمر والطاعة!

اشتقت لطاعة زين وهو يقابلني بتلبية ما أريد؛ ليتسابق مع أخته، تأوهت بوجع آه كم أفتقدكم وأتوق لاحتضانكم بشدة، لكن من دون هذا الزي الذي يلف جسدي.

فها أنا أرتدي ملابس السجن المتعارف عليها حتى إنني أستغرب من لونها الفاقع كيف لا يضر بعيني!

حان قبل ساعات اندلاع باب السجن وتحديدًا تلك القاعة السوداء وهذا الحدث يعد تأريخي بمثابة الدخول نحو عالم أكبر قد فارقتهُ منذ ألف وثمانمائة وخمس وعشرين يومًا.

نعم تغير كل شيء حتى بات الرغيف المحترق مُرمى للنفايات بعدم اكتراث، بعدما كان مرتع لمعدتي أنا وأطفالي وزوجتي.

شعرت إنه لم يتبقى لي سوى"أنا وذكريات" أو "ذاكرة مُتهم"

مر شريط حياتي متسلسلًا لي ليشرح لي مدى وجعي لأندب حظي!

فالخمس سنوات كانت كفيلة بتغيير كل شيء، حتى هذا القابع في كرسيه، ما هو إلا نتاج مخلفات الظلم!

"مُحمد أمين"

قالها القاضي بصوت أجش مليء بالحزم ورذاذه يتطاير بقرف.

"ما سبب تورطك بمستودع الأسلحة؟"

"سيدي، صدقني أنا لم أكن أعرف شيء عنها"

ليجيبني بحزم وتحقير:

"حسنًا، يبدو إنك لا تريد أن ترى النور"

خرج صوتي مُتحشرجًا مُغلف بطابع رجاء:

" لا يا سيدي، لكن وذرات أطفالي وبراءتهم، صدقني لم أكن أعلم بشيء، كنت باحثًا عن رغيف يسد جوعهم فحسب، وصادفت دورياتكم تعلن الإمساك بي دون شعوري، وكم صرت أصرخ ببراءتي لكن!"

ساد الصمت ليأخذ جميعًا أنفاس عميقة، فأنا لم أقترف شيء، وهُم يرغموني على الإدلاء بشيء لم أفعله!

عدت أدراجي وكأن شيء لم يكن ولكن الأيام لن تبقى على حالها!

حتى وإن قتلوني لا تثريب، فأنا بريء، وإن استبيح دمي أهون على قلبي من التنصل خلف ستار الكذب والافتراء.

الآن بعد رجوعي ها هنا، عادت صوركم تطوق قلبي ولا تفارق عيناي، أشعر بحرقة تذيب صدري وتحرق مقلتي.

زيــن.... لُـــجين..... أحُـبكما.

مرت أشهر وأنا قابع في مكاني، ولم أتحرك في أسطري وخطوطه السوداء، وها هو اليوم السابع من نوفمبر قوبلت بصراخ عال لأفاجئ بمناداتي مسرعًا، ولكن لا أدري إلى أين؟ والآن قد رجعت منهم واستأنفت مقاضاتي لغد، سأكتب لكم غدًا ما ستؤول عليه أنفاسي في الثامن النوفمبري.

أحبكما زيــن، لُــجيــن، اشتقت لـكمـا.

في العاشر من ديسمبر كنت أصرخ ولا أعرف شيء سوى إن معدتي فارغة وأختي الأصغر قابعة ترسم صورة لا زلت أتذكرها بوضوح، كانت عبارة عن أشكال مُتداخلة فيما بينها وخطوط متعرجة وأمور غير واضحة وتعتلي الصفحة رسمة عين بدموع غزيرة أشعر بحرارتها كلما تذكرتها!

خرج أبــي ولم يعد، انتظرناه كثيرًا ولكن لم يكن محُصولنا سوى الانتظار، كانت أمي تقول سيعود في هذه الأيام، والناتج لــم يــعـد.

"أمي أنا أفتقد أبي ولن أتحمل أكثر من هذا أرجوك أين أبي؟"

ليجيء صوتها الرخيم بنبرة حزن:

"هوّن عليك يا صغيري سيعود هذه الإيام"

باغتها بنبرة متوسلة:

" أمي مضى أكثر من سنتين ونحن ننتظر!"

"صغيري أنت كبير، وسنحتمي بك أنا ولُجين"

قابلتها بعبارة فاقت صبري:

"قاسيت صبرًا وأنا أشتاق أبي"

كانت هذه الذكرى عالقة بي ولن تفارقني ما حييت، كبرت لُجين وأصبحت في سن العاشرة وكبرت أنا وأصبحت في سن الخامسة عشر وبقي أبي ضائعًا عنا، لم يكن في عداد الأموات لنرى قبره ولم يكن في عداد السجناء لنرى وجهه.

كل هذه كانت ألغاز لم تفارقنا حتى ذاك اليوم المختلف بدأ بطرقات خفيفة حول مقبض الباب وانتهى بأمر مختلف تمامًا عما نظن أو نعي!

"هل من أحد هنا؟"

"أهلًا، من الطارق؟"

سمعت صوت أجش يتلفظ أسم أبي:

"أنا وليد صديق محمد أمين، هل هذا منزله؟"

"نعم، نعم، أهلًا وسهلًا يا عم"

فتحت الباب وعلامات الفرح تتطاير حول رأسي ويلتف القلق في قلبي وتعتصر روحي شوقًا للمجهول.

"حبيبي، هل أنت زيّن؟"

أجبته بهدوء مفتعل، فحنجرتي أصيبت بالتشقق فجف فمي، وبنبرة أقرب للشجن:

"نعم يا سيدي أنا هو زيّن"

كان جوابه كالواثق إن الذي قِبالتهُ على قيد الاستيعاب، وبصوت مبحوح وابتسامة شفافة قال:

" هذا الدفتر كان يحمل على غلافه عنوان منزلكم واسمك مزخرف بخط جميل على مقربة من اسم آخر أظن إنه اسم بنت تُدعى لوجي أو لُجين!"

كان كثيف اللحية تتسمر في عينيه نظرة غريبة أشبه بالشفقة والعطف، وأرنبة أنفه تطفو وسط عوالم وجهه، أما جسده فكان نحيل مائل للسّمار وشعره مختبئ تحت قبعة تبدو كما لو إنها ناهزت الثلاثين عام.

أجبته على نفس رتيبة هدوئي السابق:

"شكرًا يا سيدي، لكن أين والدي؟ يبدو إنك تعلم عنه!"

"اقرأ الدفتر وستعرف، أستودعك الله يا بُني"

شعرت بالغليان يكتسح جسدي وتحشرج صوتي لأقول:

"في أمان الله يا عم، رافقتك السلامة"

بدأت مشاريع الاضطراب تتزايد في داخلي وبدأت معدتي بإفرازاتها وأشعر إن نسبة الأدرنالين والنور أدرنالين اتفقنا على أن لا يتعاونا.

جلست أتصفح بسرعة، سرعان ما شرعت برحلتي في معرفة مكان أبي فقد طال الجوى وأشتد الوجع والضنى، وتَوَلدَّ الصدى.

كانت صفحاته تشرح حال أبي عندما كان حبيس الجدران وكيف كان يتألم بشوق لنا، وكيف يستذكر كلماتنا وعباراتنا وفي كل صفحة وضَع أسم زين ولُجين!

أشتد الألم أكثر وتزايدات دقات صنوبري أسرع، حتى وصلت للصفحات الأخيرة كان الخط قد اختلف بعض الشيء واسمي أنا ولُجين لم يُوضع قط، ولا أي ذكريات تخصنا!

وكانت بداية الاختلاف في الخط والأسلوب وكُل شيء تُعلن عما لا أنتظره مُطلقًا.

تزايد ضغط الدم في رأسي وارتفعت نسبة الإفرازات في معدتي وشعرت بانقباض يعتصرني، وقلق يحتويني، شرعت بالقراءة وقطرات دمعي تسابقني...

في الثامن من نوفمبر نودي محمد أمين لمقاضاته لكنهُ تأخر كثيرًا، حدثني صديق إنه قد أُعدِم لا محال!

تفاجأت وصرخت وذرعت الغرفة الكئيبة ذهابًا وإيابًا وفي كل خطوة دموع تذرف، آليت إلا أن أعرف كيف ولماذا يُعدم صديقي محمد؛ لأخبركم بكل شيء.

فأبوكما كان يعشقكما كثيرًا وكان شجاع جدًا وفخورًا بكما، كان يُناضل من أجل إحضار الرغيف إليكم لكن فُوجئ بأنه وقف في المكان الخطأ فقُوبل بالظُّلم وسُجن بهتانًا وجورًا.

قد أصرّ إلى آخر لحظة أن ينطق بالصدق، كان صادقًا حتى آخر نفس يهمسه، لكن السلطات الظالمة أبت إلا أن تُدمي نحر الرجل الصادق، أو ينظم معهم بأقنعة سليمة ظاهرًا، ولكنها كالأفعى سامة.

فرفض واستسلم للموت وقد أوصاني لو تم الأفراج لي بأن أخبركم بكل شيء فيما لو قُتل قبلي وأنا أيضًا اتفقت معهُ على نفس المبدأ.

نعم، فقد اتفقنا على هذا الأساس يا صغيريَّ " زين، لُجين"

التف حبل الظُلم حول الشجاعة وأفلت الحبل ليقع مُحمد أمين حبيس الأنفاس صارخًا صوته نحو الحق على ذمة أنفاسه، تأكدوا فإن قصة خروجي لم تكن أيسر من مفارقة أبوكما الحياة، صدقوني ستظل أرواحكما على عاتقي ما حييت.

نعم، لقد قُتل أبي وبقينا أيتام وترملت أمي، ولكن والذي فلق الحب والنوى ورفع روحك للعُلى؛ لأنظف أوساخ الطغاة وأسترجع دمك ولو كُلفت دمي.

قرأت جميع مذكراته وما سجلته أناملـه طيلـة خمس سنوات وعشرة أشهر واقتصصت النهاية وهَا أنا أضيف عليها لأجعلها قصة تتوسط عبارة

"ذاكرة مُتـهم "

ثق يا أبـي لـن تـظـل دمـائـُك حـبـيـسـة الـضـيـاع، ستُـراق دمـائـي لـتـضج روحك بالرضا، وتـخـلد أنـفاسك مُـطمـئنـة.

حبيس داخل أنفاسي

بقلم.. يزن جمال الدين / العراق

غرفة مظلمة رطبة يتخللها ضوء يكاد لا يلمح من بين فتحات التهوية لنافذة الغرفة، صوت ضوضاء لعب بالشارع والركض يتمازج مع صوت الخوف وارتجاف جسد متكور بالزاوية، جسد يستند على حائط متشقق ويديه تحتضن قدميه بشدة وأنفاسه تُسمع بكل وضوح مع كل شهيق وزفير ينطلق، بينما يرفع رأسه ليحاول استشفاف من معه بالهواء، تجد عينه تزوغ بخوف وتوتر وترتجف شفتيه بتوتر ملحوظ تنطق بهمهمات غير مفهومة تخالطها أنين مميت، تعلو أصوات كفحيح الأفعى تخالط الهدوء بنبضات متقطعة غير مفهومة: قتل.. دماء.. يجب أن يعاقبوا.

الخوف يعلو مع كل كلمة كمن ينتظر حكم الإعدام، يزحف على جنبه وهو يحاول الهروب من مصدر الصوت الذي يلاحقه مع كل حركة تصدر منه، يصل إلى الباب يتسلقه بقلق وقبضة يده التي تمسك المقبض ترتعش من الخوف والبرودة، يدير القبضة بعد عدة محاولات فاشلة لينفتح مسرعًا وهو يرتمي بجسده مخرجًا رأسه وصدره على عتبة الباب، ينفتح الباب للشقة المقابلة على صوت ارتطام الجسد بالأرض، ليغمغم صاحب الباب الأربعيني بنبرة مشمئزة مع ولده العشريني: هذا ما كان ينقصنا أن يجاورنا مجنون!

- ألـيس مكانـه بمستشـفى المجـانين، لِـمَ أطلقـوا سـراحه!؟ يعـود انتبـاه الشـاب المرتجـف وهـو يسـمع تمتمـة الرجـل: لا أعـرف لِـمَ وافـق صـاحب البيـت علـى تـأجير هـذه الغرفـة لـه. زاد التـوتر بعقلـه مـع سـماع كلمـة الرجـل: لا تقتـرب منـه فقـد يقتلك!

تسارعت بداخله كل الهواجس وهو يعود مغلقًا عليه الباب مرة أخرى مستندًا عليه باضطراب متزايد الوتيرة، هناك قيد يقيد فؤاده، عزله عن العالم يشعر به يمزق جسده يحتضن ذراعيه يحاول الهروب من كل الأصوات التي تحيط به من كل صوب، تعلو وتهمس لكن صوت واحد يتزايد معلنًا اضمحلال باقي الأصوات.

يلتفت حوله لتزوغ عينه على مصدر صوت الصرير المتصاعد من السرير الصدأ وهو يعتليه جسد متماسك تمتلئ عينه بالقوة والذكاء، ومضة ضوء باهتة أظهرت معالمه لتخفي باللحظة التالية، ليعود صوت فحيح الأفعى مجوفًا: اقتلهم، أسفك دمائهم، يجب أن يموتوا، عاقبهم على فعلتهم.

حاول الثبات ارتجف صوته وهو يحاول التحدث، كلمات متلعثمة: ماذا تريد؟

أعلن طيف يدور حوله بكل ركن بنبرة هادئة مطمئنة كصديق وفي: هم من رموك بهذا المستنقع الرث، تركوك وحيدا هنا ... اقتلهم، أنت عبء عليهم، ...انهم يكرهونك... أرادوا التخلص منك.

رفض التصديق وأخذ يردد بدون فهم وهو يتشنج متكتفًا حول جسده: هذا غير صحيح، أنت تكذب عليّ، أنهم....

ضحك الآخر وهو يركع أمام وجه لينظر بعينه مباشرة وهو يعيد تسجيل الكلمات المنتهية الصلاحية بصوته الساخر: أين هم الآن وأين أنت، غرفة متعفنة الجدران وسرير متهالك ولا ننسى طعام قشف زاهد كالناسك!

عندها لم يعد يستطيع الحركة انتهت قوته التي صارت خواء، تمثال يقاوم ولا يستطيع، شاخص العينين في نقطة وهمية تلازم التشقق المقابل لوجه المحتقن الملامح.

ظلام يحيط به من كل الزوايا يتحرك باتجاه ضوء أحمر لا ينتهي، يفتح الباب وهو مقيد، ينزل من على تلك السلام التي ما هي إلا نهاية العقار للسطح والفضاء، وميض فلورست خافت انعكس بعينه، ليلمع شيئًا بيده كضوء الشمس على القمر، اختنق وهو يصرخ ولا يعرف كيف النطق ولا مجيب على ندائه الواهن: أنقذوني، فلينجدني أحد منه أرجوكم، لا تتركوني.

يقترب من شارع بالضاحية توقف عقله للحظة وهو ما زال يتحرك " هذا الشارع وهذا المنزل البسيط ذو الحديقة الجدباء أنا أعرفه "لديه شعور أن هناك شيء غير صائب يحدث، تسلل ببطء.

شديد وهو يتناول مفتاح المنزل ذو الدورين من أصيص الزرع، بحركة اعتيادية بطيئة كمن يحارب المجهول يدور المفتاح ببيته وهو ينازع

الدقائق، يدلف من الباب متواريًا خلف ستار الليل، صعد الدرجات كمن يعرف كل حجرة بناء بهذه الدرجات.

يرتجف ولا يستطيع المنازعة لما يشعر بأنه يعرف تلك الزاوية التي يتجه لها، لما يشعر بأن هذا الباب محفور بداخله "أرجوك توقف ولا تفتح تلك الحجرة" أخذ يقترب معه من تلك النائمة التي تحتل جانبًا واحدًا من السرير الخشبي، يتولد لديه شعورًا بالصلة بينهم، كلما اقترب من جسدها انقشع ظلام يحيط بوجهها، أخذ يصرخ ويبكي: ابتعد أرجوك، لا تقترب منها، لا تفعل.

يصرخ بداخله والدموع تفر من ملامحه، أنه مضطرب وقلق، وواهن القوي، لما هذا الجسد صامد إذا ويتحرك بسلاسة، ضاعت كل تلك المشاعر وهو يرفع المعدن اللامع ليعرف تكوينه الحقيقي بضوء القمر المنبعث من خلف الزجاج، إنها سكين، لحظة واحدة فقط وعلم من هي تلك المرأة ليعود مستغيثًا وهو يصرخ: دعها أرجوك، لا تقترب إنها أمي، أرجوكم أنقذوني، ساعدوني، ساعدوني، انقذوها.

أين ذهب ضمير هذا الرجل أين ذهب عقله لما لا يتوقف سيقتلها سيقتل والدته التي أنجبته تحرك فمه ليطلب منه الابتعاد، ولكن خرج الصوت خبيثًا منتقمًا كصوت الأفعى تنشر سمها وهي تستعد للانقضاض على الفريسة: يجب أن تتعذبي، فلتراق دماءك تستحقين ذلك.

صدم من تلك الكلمات بينما هي فاقت من نومها على صوت همساته، لترتعب عندما تلمح النصل الموجهة لها وهو يقترب بكل بطء يريد تذوق طعم الخوف المنبعث من مقلتيها المرتعدة اللامعة بقطرات المطر المالحة، وهي تحرك شفتاها بدون صوت مدوي: لا يا ولدي!، لا.

بينما أصبحت صرخاتها مسموعة وهو يسدد اللكمات المستهدفة لجسدها فتراق الدماء محل كل طعنه، انزلقت السكين كمن يفتح المظروف وهو يمررها على ذراعها، ومع كل طعنه تنادي باسمه تستعطف ولكن لا فائدة من تلك العين الحمراء الدموية.

مكبل بزاوية السرير بسلاسل لا يستطيع التخلص منه وهو يري جسده يتحرك كمن فقد السيطرة يقضي على أحب الناس إليه وهو يصرخ فقط والآخر يبتسم بسخرية منه وبخبث للضحية التي يستلذ بصرخاتها، وهذا الشبح المطرود من جسده تضيق السلاسل عليه تضيق الخناق مع كل طعنه جديدة تقصر بها السلسلة بعيدًا عنها.

يستمع فقط له يهمس بصوت مرعب والحقد ينبع من كلماته: هذا لا شيء مقارنة بما فعلتوه جميعا.. سأنتقم له، وأقتلكم الواحد تلو الأخرى.. بعد أن أعذبكم.. أيها الوحوش فأنتم لستم بشر.. أنتم متجردين من الإنسانية تستحقون كل ما سأفعله بكم!

تكور في تلك الزاوية البعيدة مع وهن صرخاتها لم تعد تفيد كلماته، شاهد الثوب الأبيض الذي كانت ترتديه صار قاني اللون من نزيف الدماء، وجهها مليء بالكدمات، يتمتم وهو يستند برأسه على ركبتيه: كل هذا بسببي.. لو أني أخبرتها أنه عاد ربما لم يكن هذا ليحدث.. لكني كنت خائف.. فقد عاد متعطش للدماء.. أكثر عنف.. وأكثر شرا وعدائية.. كنت خائف جدا يا أمي.. سامحيني.. خفت أن يتنمر علي مثل الباقين..

الدموع جفت على خده، وعيناه تجمدت وهي تطلع بها بعد سماعه تلك الصرخة الأخيرة "سامحني "، سقطت يدها على الملأة يتطلع بجسد

أمه، فهو لم يعد لها فالروح فارقته، لقد شوهها حتى لم يعد يظهر من ملامحها شيء لاحظ ابتسامة جانبية خبيثة على شفاهه! فلم يعد يعي ما يحدث، فقد بدأ هذا الجسد الخائن يهتز مجددًا بطريقة غريبة كمن تعرض لصاعقة كهربائية ليسقط على الارض، شعر بالظلام يحيط به والغرفة تزداد ظلامًا، لكن يستمع لصوت يهمس بحقد: لا تخف يا عزيزي.. فقد بدأت اللعبة للتو .. هذه كانت البداية فقط. استسلم للظلام تمامًا مع تكرار تلك الجملة على سمعه لتختفي تدريجيا. فاق من تلك الغيبوبة ووجد أمه ممددة أمامه تحتل فراشها، أو بمعنى أصح بقايا جسدها المطعون المشوه فلم يعرفها سوى من تلك الشامة التي تزين خدها الأيمن، صدم فكل ما رآه الآن جثة مشوهة، صرخ بأعلى صوته وهو ينادي ببكاء ونحيب: أمي.. أمي.. كيف سأنتقم من قاتلك يا أمي.. كيف سأخذ بثأرك.. حتى الانتحار.. يعاقبني عليه ويمنعني منه.. كان يجب أن أخبركم أنه عاد.. أنا آسف.. لم أرد أن ترموني مجددا بذلك المكان المظلم.. المليء باللون الأبيض.. لم أرد أن أحبس مجددا بغرفة مظلمة، خفت من الصواعق الكهربائية.. دمروني.. وكلما زاد خوفي.. كان هو يقوى أكثر يا أمي.. حتى أصبح متعطش لدماء.. ويرغب بالانتقام، يحاكمك لأنك لم تمنعي أبي من وضعي بالمشفى، قتل أخي الذي ساعد أبي وقتلك... أخذك مني.. سيقتلهم جميعًا!

يحتضن جسد أمه ويشكي لها فقد علم أنه لن يراها مجددًا، ليفاجئه أبيه وهو يدفعه عنها ليرتمي طريحًا بالأرض، يستسلم لتلك الأساور الحديدية التي تطوق كفية من قبل الشرطة التي أمسكته، أخذوا يكيلون لها الأسئلة، وهو يجيب، لم يعلموا أنه يقول الحقيقة فهم لا يصدقونه وهو يصرخ: "لقد قتل .. جسدي.. أمي"

آيل للسقوط

بقلم.. هالة الجمسي / مصر

(چورج استيقظ لتلحق بالقطار أمامك سفر طويل)

صوت أمي صباحا أقوى من صوت المنبه بكثير متكرر تعلو نبرته بكل إصرار وعزم ولا تتركني إلا وأنا مستيقظ.

دعنيني أنام قليلا

رجوتها ولذة النوم بأجفاني أريد العود للنوم من جديد ولكن صوتها عاد بإصرار وقد زادت حدة الصوت فصارت صراخ

(چورچ يجب أن تنهض القطار سيفوتك لديك موعد هناك)

- موعد أي موعد؟

تململت بالفراش وقد هرب جمال الكرى من الأجفان حاولت أن أتذكر المواعيد

أي مواعيد؟؟؟ فقط "ماتش" الكرة مساء مع الجيران

ثم تذكرت المساء وبضع كلمات أمي أمس قبل الخلود للنوم عن العائلة المقيمة بالصعيد ثم غمغمت.

تقصدين حديثك عن عمي وعمتي نحن لم نتفق مع أى أحد على موعد أمي

خبأت رأسي بالوسادة وأنا أهمس لها برجاء:

انزعي الفكرة من رأسك لن تجدى نفعا.

ولكن صوت أمي قريب مني هذه المرة لأنتبه أنها تقف فوق رأسي مباشرة وصوتها كمديرة مدرسة حازمة صارمة تمسك ذراعي لتدفعني للنهوض وقد ظهر جديا أن لا وقت لمراجعة قرارتها

- هيا اغتسل بالماء البارد فالإفطار جاهز و...

صمت أمي وهي تتطلع للسقف وقد ضاقت عيناها وكأنها تتوعد السقف بشيء ما ثم نقلت بصرها الفراش الذي يتأرجح بي يمينا ويسارا قفزي من الفراش كان بسبب تلك الهزة التي حدثت بالبيت

باسم الصليب

تمتمت أمي وهي تتجه بيديها بالاتجاهات الأربع على صدرها ثم أكملت بحزم:

- الوضع لا يحتاج تأخير يجب أن تذهب لأعمامك لطلب العون البيت سينهار فوق رؤوسنا نحتاج لنرممه.

وضعت أمي على مائدة الإفطار جبن وبيض وثلاث أرغفة وطبق (عاشوراء) وجلست بجواري تمتم بضع كلمات وأنا أحاول أن أبحث بالذاكرة عن صور للعائلة وذكريات بعيدة.

ثم همست لأمي لتنزع الفكرة التي لا أتوقع أن تؤتي ثمارها:

- منذ وفاة والدي لم يطأ بيتنا أحد!

تطلعت أمي لي وأنا أرى نظرة أحفظها عن ظهر قلب فهي لن تتراجع عن قرارها وصدور فرمان الرحلة إلى الصعيد ثم تساءلت وقد كست ملامحها الحزن والوهن:

وماذا نفعل الآن؟ أنت بلا عمل والبيت سينهار اذهب لأهلك هناك وأطلب مساعدة أو نترك البيت ينهار فوق رؤوسنا.

بحثت عن الملعقة المختبئة خلف الطبق وغمغمت:

- يبدو شهيا الطبق السنوي المعتاد من أم مصطفى.

ثم هتفت وأنا استدرج بالكلمات لترسو فكرة رفض عائلتي للمساعدة ونزع الأمل التي تتمسك به:

- لن يمدوا يد العون لنا.

ذهبت كلماتي أدراج الرياح فأمي قد هبت بخطوات سريعة والبيت يهتز من وقع خطواتها وكأنه يحث الخطى معها لتختفي لثواني وتعود بحقيبة جلدية ثم هتفت وقد اكتفت من الحديث.

- هيا تناول إفطارك واذهب لمحطة القطار لقد أعددت حقيبة سفرك.

هبطت درج البيت يصاحبني صوت بائع الفول بصوته الجهوري المعتاد. ليوقظ أهل الشارع والأطفال يلهثون خلف العربة التي تحمل قدرتين ممتلئتان عن آخرهم بالفول المدمس لا تمضي ساعتين إلا تكون قد نضبت بالكامل والمحال تفتح وصرير الأبواب الصاج تعلن بداية اليوم. وبعض من الماء أمام الورش وانطلاق المذياع بأغنية (يا صبا ح الخير) وتبادل بضع كلمات من النوافذ. بين أمي وبعض الجارات بتمني جمال اليوم والأوقات قد أحدث ضجيج بالشارع. أعادني للخلف انجذاب القميص لألمح جاري مصطفى يهتف بمرح وهو ينظر للشنطة الخاصة بي:

- إلى أين؟

أجبت وأنا أشير للبيت.

- لأعمامي بزيارة قصيرة قد أعود مساءً. فالنتائج شبه مؤكدة .

أشار مصطفى لبقايا الجير الذي نخطط به ليلا الشارع كتصميم الملعب وتمحوه آثار الأقدام صباحا قبل أن يهتف بصوت عالٍ:

- عد سريعا ففريق كرة القدم لا يكتمل دونك، سنجهز الملعب وننتظرك.

(ساقع إيشاربات يا بنات. لب وتسالى . حلويات)

أصوات الباعة الجائلين التي تصدح داخل عربات القطار وأصواتهم المرتفعة وهم يتصايحون ويلقون تحية الصباح متبادلة بينهم. لا يكفون عن الذهاب والمجيء جعل من الصعب أن أكمل النوم هدهدة القطار

وانطلاقة وأنا أتأمل المسافرين ما بين اثنان يتبادلان أحاديث جانبية أو عائلة كاملة أو مسافر شارد بأفكاره مبتعد عن الجمع و"الكمسري" ببذلته الرمادية يجاهد بينهم ليقتنص المار دون تذكرة أو مختبئ بين المسافرين الشرعيين أسندت رأسي على شباك القطار فاحتك بوجهي حد حاد نظرت بجواري لرفيق أراد قتل الوقت بجريدة يومية لملم الجريدة بعيد عن وجهي وهو يبتسم لي معتذرا.

فهمست وأنا ابتسم له:

- لا عليك فالطريق طويل يحتاج لاستكشاف الأخبار اليومية.

واستسلمت لبضع دقائق من النوم قبل أن يرتطم بقدمي شيء ما وصوت مزعج يصاحبه وقد أخذ وضع مهاجم لي بالتكرار الركل والصوت يلح في إيقاظي بشتى الطرق حاولت تجاهله ولكن أتى مصاحب له صوت امرأة تصاحبه تتضرع للرب أن يكتب له الشفاء نظرت إلى هذا الصغير ذو الخمس سنوات وبكاءه المتواصل ولم أدرى أين نزل رفيقي؟ أم هو من سمح للمرأة بالجلوس؟ واختار أن يقف بعيدا!

ما الذى يبكيك هكذا؟ هل تخاف القطار؟

همست للصغير وحملته من بين يديها أجلسته بهدوء على قدمي فنظر لي ثم أمسك الصليب المتدلي من عنقي والذي أصرت والدتي على تعليقه برقبتي قبل أن أسافر.

سكن الطفل تماما ونظر لي ثانيةً فقرأت بعض من مزامير داود تطلعت نحوي المرأة بدهشة وبمرارة وحسرة غمغمت:

- صار لنا شهور ونحن عند الأطباء عاجزين عن شفائه ولا يتوقف بكاءه

أنت فتى جيد محبوب للرب أكيد.

ابتسمت لها ورق حالي للطفل فهمست بأذنه بوشوشة فابتسم وأجلسته بين ذراعي أهدهده قليلا فنام تبادلت المرأة نظرة بيني وبين طفلها الذي سكن للنوم ثم هتفت بفرح:

- شكرا لك ابني الرب يباركك.

تطلعت للصغير النائم بين ذراعي ثم سألتها:

- ما اسم طفلك؟

همست المرأة وهي تنظر للطفل بإشفاق:

- مينا.
- يا للاسم الجميل سيصير ملك أكيد أو صاحب منصب كبير.

تطلعت نحوي باندهاش ولم تفهم مزحتي معها فصمت ونظرت من النافذة والأراضي الزراعية أمامي تطوى بسرعة والطفل نائم ساكن بين ذراعي إلى أن توقف القطار بصرير متقطع ولافتة حجرية بيضاء كتب عليها بخط عريض (سوهاج) فاعتدل الكثير للهبوط من العربات ومدت المرأة ذراعيها لتحتضن طفلها النائم تضمه لها بحنان.

شاكرة إياي وصرت أعاون الناس في تنزيل حوائجهم من أعلى الرفوف وهبطت وأنا أبحث بنظري عن سيارات الأجرة التي ستقلني لبلدتي وبلدة أعمامي انتهى لمسامعي صوت اسم القرية.

(كفر المسيح)

كان السائقين ينبهون المسافرين للسيارات الذاهبة لها سارت خطواتي لمصدر الصوت الدال إلى جهتي المنشودة.

وحين هممت بالركوب رأيت المرأة أم الطفل تقف مع مجموعة كن بانتظارها وتشير لي وتتحدث لهم مما دفعهم لتوجيه أنظارهم لي فلوحت لهم قبل أن تنطلق سيارة الأجرة إلى بلدتي.

توقف سيارة الأجرة بعد عشر دقائق من السير فهبطت لتطالعني الكنيسة الوحيدة بالبلدة والدير ملتصق بها وبيت العائلة بجوارهم فجدي الأكبر بشارة هو من بنى الكنيسة وأنشأ الدير سرت بخطوات يملئها ذكرى بعض من أيام طفولتي بالبلدة الصغيرة توقفت أمام المنزل الكبير المكون من ثلاث طوابق تحيط به حديقة واسعة كبيرة تضم أشجار المانجو والجوافة والزيتون وزهور الياسمين اجتزت الحديقة لأقف أمام الباب أستمع إلى صوت عمتي ماريا وهى تردد من خلف الباب بصوت عذب جميل:

يا رب اجعل منا عائلة يحتاج كل واحد منا الأخر.. نحب ونسامح بعضا..

يـا رب اجعل منـا عائلـة يحتـاج كل واحد منـا الآخـر.. نحـب ونسـامح بعضنا..

معا نعبدك ونمجدك، معا نشارك كلمتك..

صوتها أعطاني الأمان عمتي ماريا قلب العائلة التي يشع محبة للجميع

طرقت الباب بدقات بسيطة ليأتيني صوتها الهادئ:

من بالباب؟

أجبت وقد اجتاحتني فرحة كبيرة وشوق لعمتي:

- عمتي أنا چورچ..

صوتها بادلني الفرح وهي تهتف:

- چورچ!!

سمعت هرولتها وهي تسعى للباب ورأيت وجهها المبتسم ثم جذبتني إلي داخل البيت. الذي لا يمتلأ إلا بالأثاث الضروري. كما هو منذ طفولتي. الأثـاث قـديم ومرتـب بدقـة الردهـة الطويلـة بهـا مائـدة مسـتديرة للغـذاء والسـاعة ذات البنـدول كمـا هـي بجـوار صـورة العـذراء. والغـرف كـل واحدة تحتوي على سرير ومكتب صغير ودولاب وستائر قديمة الطراز لكنها دائما نظيفة وسجاجيد ذات قيمة كل شـيء كمـا شـاهدته حين كنت طفل لم يستبدل شيء هتفت عمتي وعيناها تدمع من الفرح وهـي تنـادي لعمي:

- إيليا ألم أخبرك أن چورچ سيأتي قريبا؟ لقد رأيته بالحلم وشاهدت إياه يوصينى به، إيليا!

خطواته الهادئة لا تزال كما هي ووجه المستطيل ببياض الجينات العائلي المتوارث وعيناه العسليتان القاتمة. وأنف صغير وشعر قد غزا الشيب أركانه عمي إيليا العقل التجاري للعائلة والمتحكم بكل أموالها، رغم كبره إلا أن عقله مثل الآلة الحاسبة يجيد جمع الأموال والحسابات الذهنية الصعبة وضع يده بيدي ثم غمغم:

- مرحبا جورج كيف حالك؟

أجبت بهدوء:

بخير

ثم أومأ برأسه إلى ماريا وقال:

دائما أحلامك حقيقة يا ماريا.

تشبثت عمتي بذراعي ثم قالت:

سأعد لك طعاما لقد كان سفرك بعيد ولا بد أنك جائع. وكأني أرى (يوحنا) بشعره الأسود المجعد ووجه الأبيض النحيف وعيناه السوداء وأنف الرومان وطولك الفارع أنت نسخة من أبيك يا چورچ.

عمتي هناك أمر يجب أن تعرفوه.

حاولت أن أشرح لها حال البيت الذي يكاد يسقط فوق رؤوسنا ولكنها هزت رأسها بحنان:

- الطعام أولا.

استدار عمي إيليا بلا مبالاة ودلف لحجرة مكتبه فنظرت لعمتي وقد تسرب بعض من الخيبة لنفسي فهمست لعمتي ماريا باستجداء:

- الأمر خطير عمتي.

وضعت يديها على ذراعي بحنان ثم همست:

بعد الطعام ستخبرني بكل شيء هيا أنت ستمكث معي أيام لن أتنازل عن هذا مضت سنين بعيدة لم أراك فيها.

رائحة بخور الحصى البان قد امتزجت بتوابل عمتي ماريا أجلستني بود وهي تضع يديها على كتفي ثم نادت بصوت عالٍ:

- إيليا. إيليا الغذاء جاهز.

فتح باب مكتبه ببطء شديد وتطلع لنا من خلف نظارته السميكة وجلس أمامي ينقل نظرته بين الطعام الممتد أمامنا والتي حرصت العمة على طهي لحم ودجاج وأرز بالكاري وبسلة وبطاطس ولم تخلو المائدة من المقبلات والسلطات جعل إيليا يغمغم:

- ماريا أعدت وليمة من أجل چورچ.

ابتسمت العمة ماريا لي ثم سألت باهتمام وهي تضع أمامي ثلاث قطع من اللحم.

- ما الأمر حبيبي؟

أجبت بضيق:

- البيت إنه يسقط فوق رؤوسنا ونحن بعسر مالي ولا نستطيع أن نتدبر الأمر.

ربتت العمة على يدي بلطف ثم تابعت:

- لا بأس حبيبي كل شيء سيصير على ما يرام.

ثم استدارت لعمي وقالت:

- أعطيه من أموالي ما يشاء.

وضع إيليا الملعقة جانبا ثم ردد باستنكار:

- أموالك كل أموالنا بالتجارة وهل نسيت أن الحاج سلامة الله يرحمه ربما يرغب أولاده باسترداد أموال والدهم وستتأثر التجارة وأنت تعلمين هذا جيدا هل أوقف التجارة وأنتظر لآخر العام؟

ثم نقل بصره لي هاتفا بسخط:

وأنت، أنت لماذا لا تعمل؟؟؟؟

كانت عيني عمي إيليا تقدحان غضبا وهو مستعد ليصب غضبه علي فارتفع صوت عمتي يتحدى عمي:

- إيليا الفتى متخرج منذ شهر فقط.

نقل بصره نحونا ثم قام بعصبية مفرطة وهو يغمغم:

- سأذهب لأولاد الحاج سلامة لاطلعهم على أمور التجارة.

وتوجه صوب الباب للخارج ليعلموا أن الأمر قد انتهى ورسالته واضحة قاطعة وهي الرفض.

- لا بأس يا چورچ.

صوت عمتي الحنون جعلني أطرق شاخص بصري بالأرض هذا ما توقعته تماما فهمست لها وقد ملأتني الخيبة.

- عمتي يجب أن أعود.

هزت عمتي رأسها نفيا ثم تابعت:

- لا انتظر فقط يومان.

أخذت نفس عميق قبل أن أهتف وغصة تخنق حلقي:

- وما فائدة اليومان؟ لقد حدد عمي موقفه وانتهى الأمر.

وضعت عمتي يديها فوق يدي ثم قالت برجاء:

- لا سنحاول ثانية. والآن هل تجئ معي لنوقد شمع العذراء ألم تشتاق لكنيسة جدك والدير.

ثم سارت بضع خطوات وعادت بشنطة يدها ودفعتني أمامها وهي تهتف:

- هيا يا چورچ.

هل تعرفني يا جورج؟

أنا عمك غابرييل كنت صغيرا جدا حين رحلت من هنا مع والدك يوحنا قدس الله روحه أنا وأباك أبناء معمودية واحدة.

نظرت عمتي العجوز وتابعت:

- هذا عمك غابرييل صديق جدك.

نظر غابرييل لي مليا ثم رفع حاجبه استنكار:

- لا تتذكرني لا بأس ولكنني أذكرك جيدا أتذكر يوم التجلي؟!

هززت رأسي نفيا ثم غمغمت:

- لا صدقا لا أذكر شيء!

نظرت لعمتي ثم للكنيسة التي يفصلنا عنها بضع خطوات ويعيقنا عنها العم غابرييل الذي هتف وكأنه يبوح بسر كبير لعمتي:

- ماريا ابن أخاك چورچ شاهد العذراء يوم التجلي لقد اخبرني بشارة بهذا منذ زمن هذا الشاب مبروك.

تمتمت عمتي وهي تنظر لي بقلق:

- باسم الصليب.

ثم جذبتني من ذراعي وهي تهتف لي:

- هيا لنوقد الشمع.

تعثرت بشيء جعلني أتعثر بخطوتي ثم رفعت رأسي للجسد الصغير الذي يعوق حركتي فهتف بصوت مألوف لدي:

- أنت.. أنت...

ابتسمت للطفل الصغير الذي يرافق أمه ثم حملته:

- أهلا يا مينا.

هل تعرف تحية وابنها مينا؟!

تساءلت عمتي ماريا بدهشة.

أجبت وأنا ابتسم للطفل:

- تعارفنا بالقطار.

ولكن تحية أجابت وهي تلقى لنا نظرة ود:

- أن هذا الفتى مثل القس مارجرجس تعبت من البحث عند الأطباء ولا دواء لابني لمسة الشاب لابني بها شفاء.

بدا الضيق يظهر جليا على وجه عمتي ماريا ثم غمغمت:

چورچ يجب أن نسرع الخطى للكنيسة فالعمة ماتيلدا تنتظر هناك وإذا توقفت معها لم أصل لهناك أبدا.

توسلت عمتي لي ولكنني سألت بفضول ودهشة:

- عمتي وفقا لمعلوماتي لا عمة لي إلا أنت من تكون عمتي ماتيلدا؟

هزت عمتي ماريا رأسها بالإيجاب:

- إنها عمة الجميع هنا، أنها أكبر مقدسة بالبلدة وعمك إيليا يحبها ويستمع لها ويعتبرها رأس الحكمة فهي من جذور عائلتنا.

ثم أطرقت تفكر بشيء ما وتابعت:

- أظن أنها من جذور عائلتنا هي تنتمي لكل العائلات هنا رجاء أسرع الخطى.
- ماريا.

صوت العمة ماتيلدا القوي كبوق سيارة قد استمع له جميع من بالبلدة، أغمضت العمة ماريا عينيها بأسى ثم هتفت:

- يا إلهي لقد وقعنا بالفخ.

ثم فتحت عينيها لتنظر لماتيلدا

- أهلا عمتي ماتيلدا!

نظرت لنا العمة وسؤال يكاد ينطق من الوجه جعل العمة ماريا تجيب لتهدأ ماتيلدا وهي تشير لي:

- هذا چورچ ابن أخي يوحنا.

هزت ماتيلدا رأسها موافقة وكأنها كانت تعلم الإجابة مسبقا:

- نعم يشبه أباه كثيرا.

صوت تحية مارة بجوارنا صدح عاليا قبل أن تهتف العمة ماتيلدا:

- لا لا إنه شديد الشبه بالقديس مارجرجس.
- هلا ندخل لنوقد الشمع.

صوت عمتي المتوسل وهي تسارع الخطى لتتوقف أمام البوابة الإلكترونية والذي يجلس خلفها شابان تبدو أعمارهم متقاربة وهيئتهم متقاربة بملابس "البيچ" الممزوجة مع اللون الزيتي و"الكاسكيت" الزيتي اللون والأحذية الجلدية التي قد ارتفعت لأعلى توسطت المسافة بين القدم والمفصل (البيادة). وقد وضع كل واحد منهم البندقية بمحاذاة قدمه عبثت عمتي بمحتويات حقيبة اليد لتستخرج بعض فطائر محلاه وضعتهم بعناية داخل أكياس بيضاء ناولتهم لهم وابتسمت وهي تلقي التحية عليهم ثم استدارت لي وهتفت:

- هذا ياسين وطه. أنهم يؤدون الخدمة العسكرية. هنا بحراسة الكنيسة. تعرف يا چورچ كنت أتطلع لهم وأتذكرك فهم يذكروني بك. هم مغتربون عن أهلهم وأنت كنت بعيد عنا.

طراز الكنيسة بيزنطي يتسع لخمسمئة شخص تقام فيها الشعائر الدينية المختلفة يتوسط القاعة وعلى الجانبين منبران من الحجر لكل منهم سلما ملتويا تستخدم لقراءة الإنجيل وعلى الجانبين (البيما) مكان وقوف الكورال الذي يردد الصلوات والتراتيل الدينية خلف الكاهن بالاحتفالات الدينية واجهة الكنيسة توجد المنصة الحمراء والتي يقف عليها الكهنة لتأدية الصلوات وخلف الواجهة المنصة الحمراء.

يوجد المذبح والغرف المخصصة للطقوس الدينية وعلى اليمين واليسار مقاعد حمراء أماكن مخصصة للضيوف

أما جدران الكنيسة فتملؤها اللوحات الفنية للعذراء وللكنيسة فناء أمامي يعلوه البرج الجرسي للكنيسة.

- صلاتي اليوم يا أمي الحنون مريم إن نمت على ضيق فأيقظيني على فرج وأن نمت على حزن فأيقظيني على فرج.

اتجهت بخطوات تملأها الهموم إلى ركن بالكنيسة أتطلع من النافذة التي تطل على الشارع الخلفي وأنا أفكر بأمي والبيت المتصدع حين لمع ضوء بعينيي وسمعت صك وضحكة مينا وهو يسلط جزء مبتور من الزجاج ويلهو مسلط الضوء لعيني فينعكس الضوء على الصليب ووجهي فابتسمت لمينا بود.

وحين استدرت كانت العمة ماتيلدا تقف بأول الكنيسة وقد عقدت الدهشة لسانها تنظر لي وللضوء وتمتمت بصوت منخفض:

(المبشر)

هتفت ماتيلدا باستنكار:

- صرت عجوز إيليا تملكك الوهن والمرض وضعف الذاكرة.

هتفت عمتي ماريا:

- چورچ تعال وبارك ماتيلدا.

نظرت لي عمتي فأسرعت الخطى ووضعت يدي على رأس العمة ثم تمتمت بمزامير دواد وإيليا يتطلع بصمت:

أطلقت ماتيلدا زفرة ارتياح وچورچ ينهي تراتيله ثم قالت:

- لقد ذهب عني الألم.

ثم مالت على أذن العم إيليا وهي تشير لي:

- ابن أخاك مبشر!

وما كادت تنهى جملتها حتى دق الباب ثانية واندفع مينا يجري بالبيت وخلفه غابرييل وحفيدته لوكا التي تبكي وتحية تتحدث لچورج وتشير الصغيرة لوكا

- إنها مريضة مثل ابني.

تطلعت نحوهم دون أن أفهم شيء فهتفت عمتي ماريا:

- هيا جورج قم بمباركة لوكا.

ثم نظرت للعم إلياوتابعت:

- وعمك أيضا إنه مريض.

وافقتها تحية:

- نعم إلياييبدو مريض.

هتفت ماتيلدا بفزع:

- إلياس يبدو مريض.

هتف غابرييل باستنكار:

إلياس معك كنز بالبيت دعه يقوم بمباركتك.

ولكن عمتي ماريا هتفت بي:

- لقد جهزت غرفتك بالطابق العلوي الأولى على اليمين اذهب لتستريح.

أسرعت الخطى لأعلى بهدوء تاركا الجميع.

همست ماريا لماتيلدا وهي تحاول إشغال فكرها:

- أتذكرين يا عمتي ماتيلدا حين كنت صغيرة وأخبرتين أننا عائلة مباركة وأن عمي داود الأكبر كان يملك أكسير الحياة؟

هزت ماتيلدا رأسها موافقة:

عمك داود كان عطار كان يصنع أدوية تشفي جميع الأمراض كان قديس ونافع للجميع يملك كرامة مثل چورچ.

تمتمت ماريا:

- أظن أن چورج يعلم ما هو أكسير الحياة لقد كان أخي يوحنا ملازم لعمي داود ويعرف كل شيء وقد أوعز سره لچورچ هذا مؤكد.

أرهف الجميع السمع لماريا ثم تمتمت ماتيلدا:

- إن چورج أيضا مبشر وله كرامة.

تابع غابرييل بثقة:

هذا واضح منذ الصغر.

هتفت ماتيلدا وهي تمسك بذراع ماريا:

دع چورچ يعطي الأكسير لإيليا أنه شاحب هيا ليصح بدنه ويعيده شاب.

ثم نظرت لإيليا بأسى وتابعت:

لقد هرمت يا إلياس وعيناك غربت عنهم شمس الحياة.

هزت ماريا رأسها.

إن أخي يشقى ويكد كثيرا بحكم تجارته أنه الوحيد بالعائلة أخي يشقى كثيرا بحكم تجارته.

وافقت العمة ماتيلدا ثم تابعت:

- نعم هو كذلك انه الوحيد بالعائلة الذى يمتلك حرفة التجارة بكل شيء،

وصنع تجارته من ميراثه الصغير وضم أموالك له عكس يوحنا قدس الرب روحه الذي أخذ ميراثه وذهب للقاهرة واكتفى بوظيفته.

ثم مالت على أذن إيلياثم همست:

لا تترك چورچ يبعد عنك وخذ منه أكسير الحياة.

وابتسمت ماريا وهى تلمس نجاح خطتها بمساعدة عمتها:

- اخلد للنوم الأن يا إيليا.

أنت متعب وفي الصباح سأجد حيلة لأقنع چورچ وآخذ الأكسير

أكدت ماريا الكلام لماتيلدا بثقة ومن ثم تابعت:

أخي مريض ويحتاجه.

سأذهب الآن يا ماريا وسآتي صباحا لنقنع جورج.

انصرفت ماتيلدا وألقت ماريا التحية على أخيها قبل أن تصعد للطابق العلوي لتلقى نظرة على جورج الذى غط في نوم عميق وذهبت غرفتها.

أشرقت الشمس اليوم التالي لتوقظ ماريا چورج ويهبطان للدور السفلى لإعداد الفطار وهي تنادى بصوت عال:

إيليا إيليا

- أنا مريض يا ما ريا.

جاء صوت إيليا مرتعش ضعيف فولجت ماريا للغرفة لتجده متدثر بالأرشفة وزاد شحوب الوجه ونادت بلهفة:

چورچ تعال وبارك عمك واتل الإنجيل هنا.

استجبت لنداء عمتي وقد رق قلبي لعمي وماريا تنظر له وبدأت بالترتيل وحين انتهيت هتفت عمتي برجاء وتوسل:

- چورچ إن عمك قد وهن والتجارة تحتاج إلى صحة هل تعطيه أكسير الحياة

نظرت لعمتي بدهشة وتساءلت:

- أكسير؟ ماذا؟

تابعت عمتي بثقة:

- لا تنكر أنا أعلم.

إيليا عمك هل تبخل عليه؟

استنكرت بعدم فهم:

- عمتي!

تابعت عمتي بحماس:

أنا مستعدة لشرائه سآخذه بمالي.

صوت العم إيليا جاء بوهن وهو ينظر لي:

لا سآخذه أنا وأدفع ما تريد.

نظرت عمتي لي ثم تابعت:

- فلنتفق فلتعطيه لعمك. إيليا سنبادله معك ما رأيك؟ نأخذه ونعطيك ما يلزم للبيت؟!

حاولت أن أشرح لعمتي أن بالأساس لا أفهم ما هو أكسير الحياة ولكن صوت عمي جاء بدون مقدمات:

- اتفقنا.

وضعت عمتي يديها على ذراعي وهي تزج بي للخارج ثم قالت لتطمئن العم إيليا:

هيا لنحضره أنا وأنت!

حين أمسكت بي ونحن نعتلى الدرج الطابق العلوي، همست لها:

- أي أكسير؟ عمتي ...

وضعت عمتي ماريا يدها على فمي ثم قالت:

شش هناك بغرفتي ستجد زجاجة بها ماء ورد وعسل نحل أبيض وأعشاب أخرى أحضرهم وأعطهم لعمك وأخبره أنه أكسير الحياة هيا لتعود للقاهرة هيا بعد نصف ساعة سيعج البيت بكفر المسيح كله.

- ها هو الأكسير يا عمي.

وضعت الزجاجة بيد عمي.

التقطت عمتي ماريا الزجاجة وصبت منه بكوب وأعطته لإيليا الذي تناوله كله ثم أشار لماريا بخزانة حديدية مجوفة بالجدار وأخرج مفاتيح من قميصه لأخته:

- أعطى ابن أخاك النقود يباركك الرب چورچ.
- ستكون بخير أخي.

هتفت ماريا وهي تقبل رأسه بصدق وحنان قبل أن تخرج بي للصالة صوت ماتيلدا من خلف الباب تهتف مع الطرقات:

- هل استيقظتم؟؟

تطلعت لي عمتي ثم قالت:

- يجب أن تذهب يا چورچ .

ساعتين وسيعج البيت بكفر المسيح كله سأذهب لأحضر حقيبتك وسأضع بها النقود.

حين صعدت عمتي الدرج ذهبت لأفتح الباب للعمة ماتيلدا.

- كيف هو إيليا؟

تساءلت العمة وهي تنظر لباب غرفة العم إيليا المغلق عليه

تناهى صوت العمة ماريا لنا وهي تحتضن الحقيبة الخاصة بي

- أخي بخير. وابن أخي أيضا بخير. لكن عليه العودة
- سأتى لزيارتكم بالقاهرة يا چورچ.

كان صوت العمة ماتيلدا.

حين تابعت ماريا:

- أكيد كلنا سنأتي لزيارتكم بالقاهرة وإيليا أيضا سيأتي.

حين هممت لمعانقة عمتي هيل من التراب الشديد تساقطت بشدة فوق رأسي يصاحبه طقطقة عالية وغبار كثيف ملأ الأرجاء ثم ارتج البيت بعنف واهتززت وأنا أرى الجميع حولي يهتزون وأنا أنظر لعمتي ماريا. تحاول النهوض بعد سقوطها أرضا. والعم إلياس قد ازداد تمسك بالفراش وهتف صارخا

- زلزال!

صوت العمة ماتيلدا وهي تحاول الخروج من البيت.

- أظن البيت يقع أنه قديم ووقع أقدام يتجه صوبنا ولكنه تجاوزنا لتندفع هرولة الجميع إلى اتجاه واحد وصراخ فاطمة.
- الكنيسة!!

جعلت الجميع يلتقط ويعي جيدا أن هناك أمر بالكنيسة. تدافع الصغير والكبير والنساء والأطفال وبكاء ونحيب كلما اقتربت من المكان ورعشة قد رجت مفاصلي فصار رعب داخلي وأنا اندفع بالجموع لأشاهد السنة من رماد وأجزاء متهدمة وبضع أشلاء من لحم تناثرت هنا وهناك امتزجت بضع دماء بقطعة حلوى ودماء بفطائر مع أقمشة زيتية ولون بني قد صار القاني مضاف لها وقطعة حلوى تدحرجت بعيد عن كف صغير. قد طرح أرضا ووجه السماء ينظر.

بكاء وعويل من كل جانب ومكبرات الصوت من المآذن. اسعفوا بدمائكم مصابي الكنيسة.

وصورة العذراء تبكي.

ياسين ومينا وطه

أضاليل برمق القهوة

بقلم.. زهرة عاطف صبحي / مصر

انطلاقة..

وعند اتباع أضاليلك الفطرية، تعمى عن رؤية ملامحك أيضا، وترضى تذوق رمق قهوتك التي تشبهك، لم لذلك كافح مع جماعتك .

ملحوظة: القصة تتحدث عن مأساة إنسانية في العالم ومعاناِة فئة من البشر، من لديهم أرواح وأجساد تماما مثلنا.

فإن كنت تعاني من مرض العنصرية والطائفية فالقصة غير مناسبة لك.

مقدمة..

(رأيك في نفسك أهمُ بكثير من رأي الاخرين فيك)

- سينيكا

"سيمحى أثركم من الحياة يوما ما".

هذا الصوت المزعج الذي تسمعه كل بزوغ فجر، مع صوت تلك الرصاصة المزعجة التي تعمدت القضاء على أمثالك، وما زالت تخطط للمزيد.

لا تدخل ذلك المقهـــــــى الصغير إلا وجموع الناس تنظر إليك بعيونٍ وحشية مرتعبة، وبعض الهمِس الذي يَصوب نحوك فتتمنـــــى حينها لو تصاب بالطرش.

"كافح مع جماعتك".

هذِه هي الجملة الوحيدة التي ستطلعك على مـــلامح العـــالم، لا ملامحَك الراسخة في عقـــــل أي بشري، ستقودك لتسمع سيمفونية بعض البشر المبعثة للخوف والقلق، ستجعلك تتبع أضاليلك التي لا تعرف نهايتها!

لا تثق برأيِي أحد، ثق برأيك فقط.

أنت معنا، لكنَك لست منا!

هذه هي حقيقة رمق قهوتك اللذيذة التي تعكس حياتك..

" أضاليلك برمق القهوة".

هذا هو خط بدايتك، يمكنَك أن تنتهي منه!

إذا وجدت الحرية، وجد الوطن.

بعض الأضـــاليل تكـــون في الطريق الخاطئ، لكن من الممكن أن تكون في طريقَك الصحيحة، بالنسبة إليك!

المكان: الولايات المتحدة الامريكية.

مدينة فيرغسون

السنة: ١٩٧٠م

وتحت تلك السماء التي تبكي إثر شـــــجار بينها وبين الرعِد الغاضب، وقفت تلك المرأة في منتصِف العقد الثالث بمعطفها الرمادي المتسخ وقبعتها البيضاء التي تغطي رأسها قليَل الشعر.

في إحدى يديها حملَت بعض الأكياس التي يوجد بها ما يسد جوعها لتملأ معدتها الخاوية وحقيبة تضع بها ما يثبت أنها إنسانة!

وفي قبضِة يدها الأخرى أمسكت كبسولة لتلك البطِن البارزة.

الدوار هو الشيء الوحيد الذي شعرت به في ذاك الحين، طرحت تلك الأكياس والحقيبة أرضًا، على الأرض المبتلة تمامًا، أمسكت رأسها وبدأت تتنَفس بسرعة.

لم تعد قدمها قادرة على حملها،لذلك اضطرْت إلى إراحة تلك القدِم المتشقة والجلوس على قارعة الطريق بجانب أكياسها.

مَر بجانبها فتى صغير أشقر مـــع والدته، نظر الفتى إلى تلك المرأة، ثم التفت إلى والدته وطلب منها مساعدة تلك المرأة المسكينة، رفضت الوالدة بحجة أن المرأة سوداء، ومن الممكن أن تكون مجرمة أو بها وباء على ما تعتقد!

اكتفت المرأة الجالسة بالنظر إليهما رغم عدم استطاعتها رؤية ملامحهما ودون التفوه بكلمة واحدة.

مرت سيارة ورائها وأعطت إشارة طويلة بمعنى أن تفسح الطريق.

جاهدت تلك السيدة قدمها على الوقوف مرة أخرى واستطاعـــــت حمل الأكياس.

حاولت جاهدة عدم التـرنح في مشيها لأن الكثير من رجال الشرطة تقبع في هذه المنطقة، فقد تلقى حتفها بسبب رصاصة غادرة على يد أنجاس.

بعض الأشخاص ينظرون إليها بخوف وفزع، وبعض السيدات النبيلات يتهامسن ويقهقهن، وهى تسير متجاهلة تلك الطعنات التي اعتادت على أخذها كل صباح وتكتفي بالابتسام وتحسِس بطنها المحة إليها.

لمحت بجانبها مقهى صغيْر، لكنه ملائــم لشرب قهوتها المهدئة، ملائــم أيضا للراحة القليلة من حيث جسدها وقلبها وسمعها.

دخلته وبدا مكتظ بالكثير من الناس ولا ترى سوى شخصين فقط من بني لونها.

تقدمت لطاولة نادل القهوة الأصهب وهو عبس تلقائيًا عنَد رؤيتها، اكتفت بالنظر إليه بعيونها الحادة ذات اللون البني التي تبعث الرهبة في قلوب كِل من يرى جمالها.

"لما يوجد الكثيُر من السود هذا الصباح؟، هـــــل نفذت الرصاصات أم الشرطة في إجازة اليوم؟"

تحدَث النادل ذو البشرْة البيضاء بسخرية واضحة، بالرغْم من أنه لا يوجد الآن ِسوى ثلاثة أشخاص.

"يبدو أنهم مشغولون بالقضاِء على عقوْل أمثالكم".

ردِت المرأة تلقائيًا وحملت في لكنتها سخرية أيضًا.

سمعت ضحكات من هذان الشخصان ذوي البشرة السوداء تدُل على السخرية من النادل بينما باقي من في المقهى اكتفى بالنظر!

إنزعَج النادل كثيرًا وأكتفى بك بالسـك علـى أسنانه مثل وحش ضاري يريد الفتَك بفريسته.

"عودوا من حيث جئتم، إلى حيث تنتمون".

صرخ النادْل بغضب وزفَر بحنْق محاولاً إخماد النار التي تأججـــت بداخله من الإحراج الذى لحقه.

"أرجعونا من حيث أخذتمونا غضبًا، أليس حلا جيدًا؟"

تحدثت هي بهدوِء على عكس المتوقع، ُمثبتة له بأنهم المستعبدين.

اكتفى النادْل بالتزام بعَدما لقيه من عارٍ وإحراج من شخصية المرأة القوية وطلاقتها في اِلرد وسرعْة بديهتها.

سألها النادل عْن القهوة التي ُتفضلها فأجابت بثقة

- "قهوةُ تشبهني لو سمحْت."

أعاَد النادل سؤاله مرًة أخرى وأجابته بنفِس الإجابة، جذا رجلُ متقدم في العمْر،أشيب الرأس وتقدَمَ نحو النادل وَطلب منه قهوة سادة والأخرى بالحليب، أعطى واحدة لتلك السيدة التي تريد قهوة تشبهها ومن ثم رجع إلى طاولته والتزَم الصمت.

شَكرته تلك المرأة لتَفُهمِه إياها ومن ثم ذهبت لتلك الطاولة التيَ تقبُع في الزاوية الصغيرة في المقهى، وأخذت معها جريدْة كانت أمَام النادل.

وقَعَ نظرها على أول عنوان في هذه الجريدة "الشرطة الأمريكية تقضى على إرهابيون سود يثيروَن الشغب".

جلسْت وأمسكت قهوتها وبدأت فيَ سكب شلالاٍت مـن الـدموع الحارة التي تتدفُق في نهر حياتها، َ تمعنت جيدًا في القهوة مجددًا وبدأت ترى مزيدًا من ذكرياِت الطفولة المستعمرة.

ووجوه تتذكرُهم فقط عند النظر في كوبِ القهوة، ولطالما كانـت تعاني من مرض عمى الوجوه البعيد أو ما يسمى ب

.-Prosopagnosia

بدأت ترى وجه والدتها وهي تصرخ على هـؤلاء الجنود بأن يتركـوا زوجها، تتمسك في بزة أحدهم وتترجاه بأن يرحم ضعفها، يشدها أحدهم مْن ردائها المليء بالشجِر والورود وتلـــك والحماماٌت التي تعبُر عن الحرية التي لم تعرف لها طعمًا قط!

طلقة واحدة خرجت من تلك البندقية تناثرْت خلالها ِدماء والدها الطاهرة في أرجاء كوخهم الصغير، ولِتصاب هـــي بـــالرعب وتنشبْث في رداء والدتها.

ويا حسرتاه حين تتذكر صوت ذلك السوط وهو ينهاُل على ظهر والدتها وشقيقها الأكبر دون شفقة أو رحمة، هى تشعر بألمه في قلبها إلى الآن.

تتذكر حين كانت صغيرة مكبلة بالقيود مع أفراد مـن جماعتهـا، يقذفون إلى داخل تلك السفينة المتوجهْة إلى بلاد العنصرية والهمْج.

حين لم تفهم تلك الجملة التي تفوه بها جدها.

"باربرة، كافحي مْع جماعتك، كوني مثل القهوة".

ومن ثم انتهى كل شيء ولم تسمْع منه جملة أخرى أو شيء يهون عليها جل أمرها.

وتتوالى الأيـــام، وتصبح خادمة في أحِد البيوت الأرستقراطية لعائلة من الدرجة النبيلة، تتعرض للإهانة مرات عديـدة، وإلى المضايقات الجنسية مرات أخرى.

يحرر السيد رقبتها بعد سنواٍت من الخدمة والعمل الشاق وبعد أن أصبحت في ريعان شبابها ومستعدة للزواج، زوّجها سيدها عامـــــــــل الحديقة لديه وهو شاب أسود في مثِل عمرها.

اسـتدان ذلـك الشاب الكثير من أجل شراء بيـت يضـمهم، بعد أن ترك العمل كعامل حديقة وتوجه إلى ورشة لتصليح المحركات.

بعد سنواتوسنوات من انتظار أنامل صغيرة وناعمة حبلت باربرة وأخذت حياتها تضحك لها من جديد، لكن الأمر لم يدُم، إذ أخذ من كان لهم مال عند زوجها الذي يسعى ليل نهار في توفير اللقمة الهنيئة لهم والشراب الحلو المستساغ، سجنه ورفع قضية عليه بالرغم من أنه سدد لهم المبلغ!

أخذت هي تدور في المحاكم، تدافع عن زوجها المظلوم وتؤازره، تعمل من جديد لتوفير مال يفكُ أسر زوجها ويعيده إليها قبل ولادة فلذة كبدها.

ولكن كل مـا قالــه القاضي لها أثناء الجلسة الأخيرة "سيمحى أثركم من الحياة يومًا ما"

أخذت تفكر حينها، كيف تدعى أمريكا بلد الديموقراطية والحرية وهي لا تفقه شيئا عنها؟!

ماذا تفعل تلك السيدة التي تمسك في يدها مشعلا؟ هل تخبرنا عن الحرية أم تخبرنا أن أرواحنا ستزهق إلى السماء أو إلى حيث تشير.

ماذا تفعل تلك المنظمات الحقوقية التي تساعد فقط على قمع الحريات .

ماذا فعل قانون إلغاءِ العبودية بحقنا، هـــــل ما زال يخطط لإبادتنا في السر؟!

أخذت تتذكر قهوتها اللذيذة الذي اعتادت إحتسائها كل صباح أمام شرفتها الزرقاء الباهتة، ولكن بعد مـا آلت الأمور إلى تلك الحال تغيرت تلك القهوة إلى قهوة تشبه كل جوانب حياتها أو بالأصح رمقه!

وفي ثبج ذاك الأمـــر تذكرت نظرات جيرانها لها بعَد أن سجن زوجها فجأة، هي الآن زوجة مجرم بالنسبة لهم، هي الآن سيدة وحيدة لايعرفها أحـد، وكما قـالوا فإنُ كَل إنسان يأخذ نصيبُه من اسمه، وها هي باربرة بمعنى الغربية المنسية، كانوا يلقون اللومَ عليها لأنهـــا تدافع عن حقها ويقنعونها بأنها تسلك طريق الضلالـــــة، لكن تلك المرأة القوية حبذت السير على أضاليلها عن السير في طريقهم الصحيحة.

لقد سئمت هذا الأمر، وقررت رؤية ملامحها فقط، تلك الملامح المخيفة التي تبـث الرعـب في قلوب كل من يراها، دون النظر إلى ما وراء تلك الملامح الحكم الطاغي عليها!

لذلك لا تثق برأي أحد، ثق برأيك في وطن لا يعرف بدون الحرية.

عادت باربرة إلى واقعها، بعد أن استغرقها التفكير مدة طويلة، لا تعرف كم من الساعاتِ استغرقتُ بالتحديد، لكن يكفي أنها أطلقت العنانَ لمشاعرها ورمقِ أضاليلها المشوهة في كوبِ قهوة ظنت وأنه الملائـــم لذلك.

انتبهت إلى أن جموع من كان في المقهى ينظر إليها ويراقبها في شـــك وريبة، بالتأكيد ظن البعضُ أنها مشعوذة أو ساحرة تحضّر عمـلا لأحـد مـــا في كوب القهوة، وظن الآخـــر أنها مجنونة تحدقُ في القهوة لمدةٍ طويلة أو مريضة نفسيًا تبكي بدون سببْ، والقليلينَ فقط ينظرونَ بحسن نية.

في هذه اللحظة أطلقتْ المرأة انينًا طويلا،بينما حطمتِ كوبَ القهوة على تلك الطاولة، هي تبدو على وشكِ الولادة والمخاضُ آتها.

أخذ كل من في المقهى يسألها عَما بهـا، فتجيبهم أنهاعلى وشكِ الـولادة، فيتذمرالبعض والبعضُ الآخر لا يعرفُ ماذا يفعل وكيف لها أن تلدُ هنا؟

تقدمت إمرأة قصيرة في أوائل العقدِ الرابع، ذات جسد ممتلئ وبشرةٌ بيضاء صافية وشعر أسود قصير يشبهُ ليلة كاحلُة السواد.

"أنا ممرضة، يمكنني أن أساعدها".

تحدثت تلك السيدة بينما أمسكت بيد باربرة المُرتعشة وساعدتها على النهوض،سألتها أين تسكن وهل من أحدٍ معها فأجابتها أين تسكن وتجاهلت ذاك السؤال الذي يعتصر جسدها وجعًا.

بالفعل ذهبت الممرضة بها إلى حيث تسكن،أخذت في التحدث معها لتهوين الأمر عليها، كما أخبرتها بأنها تدعى شاهندا

وأنها أيضًا تعاني من التنمر بسبب بدانتها.ويجب أن يصبر الإنسان ويثق بربه ثم بنفسه ثم بالعالم رغم إنه موحش وقاسي القلب.

أومئت المرأة السوداء برأسها تفهمًا لشاهندا ومْن ثم عادت لذكر وجعها الذي بات على حافة أوتار الحياة، ليعزف مقطوعة جديدة لأمل جديد.

أخبرتها الممرضة أن تغمْض عينيها وتستريح لتسهيل الطلِق وبالتـــالي عملية الـولادة، أغمضت باربرة عينها وتخيلت أنها حـرة، منصهرة في معدِن العالم الصلب، لهـــا شأن ولها حقوق كما عليها واجبات، تخيلت وليفها بجانبها وبين رسغيه صغيرهم المنتظر منذ عقود طويلة وأحلام وأماني بعيدة الأجل..

تخيلت في النهاية عالمها بمنظر أفضل وشكلٍ أجمل.

ولكن كَم هو مؤلم أننا لا نستطيْع أن نغير بخيالنا واقعنا المرير!

"فليبارك الرب، إنها فتاة جميلة مثل والدتها".

قطع أحبال تفكير باربرة صوت شاهندا الخشن وصوت مناغاة من بين يديها، أخذتها وبدأت في التحديق بهـا، إنهـا شديدة السمار فقط وعيناها بلون البندق ولديها زغب في كثير مـن الأماكن، إذن ما خطر على بـال والدتها هو اسم (جورجيا)

ابتسمت الوالدة تلقائيًا لتظهر أسنانها ناصعة البياض كنجوم متوهجة في ليلة عاصفة البرودة، ولتبتسم شاهندا بالمقابل ثم تودع الأم وطفلتها ثم تترجل من المنزل الصغير المليء بالحنان و الألم.

في وقت الغروب.

أقدام همجية تركل ذاك الباب المتصدع ليثرب عليه، وتتعـــالى أصوات غاضبة تأمر من بالداخل بالخروج وتسليم نفسه، فتحت تلك المرأة التـي ترتدي تنورة رمادية طويلة وعليها ثوب قطني واسع، قاتم السواد.

ركلها أحـد هـؤلاء للداخل، ودلف ورائه بقيـة الرجال أو بالأصح أشباه الرجال، لم تستطع سؤاله عْن سبب ما يحدث ولكن تركت طفلتها تتسائل نيابة عنها.

يد متسلطة، سارقة، ملوثة بدماء أحـد يبكي داخل زنزانته أو يدعو عليه وعلى أمثاله أمسكت تلك التي لا تفقه شـــــيء، تلك المبرئة من ذنب لم ترتكبه لينفجر بركان الغضب عند والدتها وتركض مسرعة لتنتشل الصغيرة بين يد عديم الرحمة والضمير.

لكن لا فرصة لها أن ترى صغيرتها التي بدأت بالبكاء لأنهـا جائعة إلى الحرية، وأتؤازرها في محنتها، فقد انهال أحد رجال الشرطة بالضرب المبرح على رأسها بالأخمص لتغلق عينها تدريجيا ولترقد في بركِة الدماء النابعة منها.

تم ترك المرأة في المنزل عسى أن تكون في غيبوبتها الأبدية وليتَم تنفيذ طلب ذاك الرجل من المقهى الذي قدَم بـــــلاغ بوجود امرأة تثير القلق والشغب!

- "ماذا سيحدث للطفلة سيدي؟"

صوت الشرطي الصغير يأتي من خلف الجدران وهو يحمل تلك الطفلة التي تعبث بسعادة في شارته.

"ستذهب للأحداث، لا تنسى أنها من نفس اللون".

تحدث القائد بحدة وهو يرتشف من كوب القهوة الذي ما زال يغلي في قلوب من أحبوه ويذيقهم مرارته.

إنها النهاية لهذا الطريق المفتوح الذي لا يعرف له نهاية ولا بداية، وكما قلنا يمكنك أن تنتهي من الطريق الذي بدأت منه.

لن َتنفعك الأوراق والحقيبة، إيمانك وعقيدتك هو منجيك الوحيد.

العنصرية مـا زالت مستمرة، العـالم نائم على أحـلام اليقظة، كما نحن نائمون على أحلام غيرنا، أغلق دفتَرك واخلد للنوم.

أغلق الباب، وسكَتت الأفواه، وتناست الذاكرة، وسكبت القهوة.

لحظة واحدة، لم انته بعد!

نحُن نفضل الأبيض عن الأسود في كل مجالات الحياة.

نحن نجعل الأسود للخوف والتخويف، والأبيض للأمن والأمان.

لذلك، العالم يضجُ بالخوفِ والهلع إلى الآن

وأنَت سبب في ذلك.

كافح أنت أيضًا مع جماعتك، وكن مع العالم!

اختر أنت النهاية عزيزي القارئ.

اجعل مشاِعرك هي من تحرك خيالك.

وتذكر أن الغموض هو طابــع هذه القصة القصيرة مثَل هذا الواقِع تمامًا ومثَل أشياء كثيرة، قد تكون تجهلها وقد تكون قد عرفتها وتجاهلتها!

كُن أبيضــا أو أسـودا، كن شـرقيا أو غربيـا، كن عربيـا أو أعجمي، كن مسلما أو مسيحيا أو يهوديا، لكن لا تكن عنصريًا، لا تكن ضد العالم، لا تكن ضد فطرتك السامية المعتدلة الشريفة.

الخلاصة لا تكن ضد نفسك.

أنا أعرف أنك تتفهم هذه القضية المريرة، أنا أعرف أنك معي حتى وإن كنا مختلفين، فنحن إخوة، وما زلنا إخوة، وسنزال إخوة، لا فرق بيننـــا فنحن جميعًا من نفس واحدة.

نحنُ جميعًا أحرار وسنبقى روحًا طليقة كما جئنا إلى هذا العالم وكما خلقنا بارئنا. وسيظل الأمـــــل قابع في نُفوسنا لنغيرَ ذلك العالم، ونلون الكون من جديد ونرسم الابتسامة في وجوهنا إلى يوم الوعيد.

نعم، نحن البشر جميعنا بدون تفرقة.

تذكير: قــال رسولُ الله صلى الله عليه وآلــه وسلم: "لا فرَق بين أبيض وأسود إلا بالتقوى."

وفي حديثٍ آخر لا فرق بين أعجمي وعربي

وأظن أن هذا الحديث يشرح للعالمُ كل شيء.

تم بحمد الله

س: ماهي فكرة مشروع " أكون أو أكون للإبداع العربي " ؟

كنت أتصور " مثل غالبيتكم" مقدار التعاسة، التي أكون فيها حينما لا أكون ناجحة في حياتي؟ ماذا سيكون وضعي؟ كيف ستكون نظرة الآخرين لي وأنا أحاول أن استجدي عطفهم لتهتموا بأمري. لقد ولدت بهبة ربانية جميلة ولكن أغزل سطورها في الظلام، لا أعرف هل أصابت أم خابت.. لم أملك من يقول لي:

- خذي خطوتك التالية .. أنتِ رائعة ..، لا تقلقِ أنا أمسك بيدك.. أنا هنا لدعمك.

ولطالما كنت أتساءل: لماذا هناك أساسا احتمال للفشل؟ لما لا يكون النجاح الهدف الوحيد في القائمة! أعني.. إما أن ننجح أو نموت من دونه؟ لمَ علينا أن نضع خيار "الفشل" أمام أعيننا في كل خطوة نخطوها نحو الأعلى؟ مجرد تفكيرك أن هناك احتمالية لا بأس بها بالفشل الدائم، فأنت ستتوقف عن كونك خلقت بفطرة النجاح.

وبتلك الحقيقة المرة سنسأل أنفسنا: لماذا علينا أن نكون أو نكون؟

لأنه حقك المكتسب في أن أكون أو أكون. باختصار إن نظرتك لنفسك أنت، هي التي ستحدد لك طريقة حياتك؛ إيمانك أن الله لم يضع فيك موهبة عبثا سيكون سلاحًا تدافع به عن ذاتك أمام كل شيء و أي شيء.؟

ومن هنا تجلت عبقرية الدعوى.. من خلال (أكون أو أكون للإبداع العربي) لتصبح أول مؤسسة إبداعية عربية، موجهة توجيهًا كاملًا.. لتغير المنظومة الإبداعية الأحادية.. في الوطن العربي... إلى منظومة جماعية، أكثر جمالًا وأقل أنانية.

نحن بفضل الله خلقنا لكم عالم يلبي جميع احتياجاتكم كأدباء طموحين وعليها سنقدم لكم خدمة تنظيف مجانية علّها تمحو عن عدساتكم ضبابية اللبس فترون الفرق بوضوحٍ ذا دقةٍ عاليةٍ مثلنا.. عندما تنطقون "أكون أو أكون" دون اللا، حتى تنفذ محبّتها إلى قلبك.. مع كل ضحكةٍ ودمعة تذرفها معنا.. وإلى عقلك مع كل فائدة تتعلمها، ثم إلى التاريخ مع كل مبدع سنخرجه إلى الساحة الإبداعية الحقيقية قريبًا بإذن الله.

إذا ولدت بهبة ربانية جميلة، تغزل سطورها في الظلام، ولا تعرف هل أصابت أم خابت.. " أكون أو أكون للإبداع العربي " تقول لك:
-خذ خطوتك التالية.. أنت رائع، لا تقلق أنا أمسك بيدك.. لا تحزن "أكون" هنا.

إن كُنتَ تمتلك الموهِبة.. وتسعى للتطور فليس عليك سوى أن تكون "أكونيا" احصل على مكانتك الحقيقية في عالم الإبداع... وأملك العزيمة لتصنع اسما أعتى من أن يتراكم عليه غبار النسيان. ولأنه لا مجال لأنصاف الحلول... افعلها ولتكُن أو تكون.

بقلم الأستاذة والكاتبة:

هدى عيدروس شيخ محمد

" نورسين "

جميع حقوق النشر محفوظة. ولا يحق لأي شخص
أو مؤسسه أو جهة إعاده إصدار هذا الكتاب. أو جزء منه .
أو نقله بأي شكل من الأشكال او تدواله الكترونيا نسخا
او تخزينا دون إذن خطي من الدار